بيوت وشوارع

محمد عيسى القيرى

إعداد وتقديم : حلمى سالم



اهداءات ٢٠٠٤

مجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

محمد عيسى القيرى

بيوت وشوارع

(قصص)

إعداد وتقديم: حلمى سالم



٢٠٠٢

المجلس الأعلى للثقافة

« بيوت وشوارع »

قصص

تأليف : محمد عيسى القيرى

إعداد وتقديم : حلمي سالم

الطبعة الأولى ٢٠٠٢

إدارة التحرير والنشر :

١ ش الجبلاية بالأوبرا

الجزيرة – القاهرة

ت : ٧٣٥٢٣٩٦

فاكس : ٧٣٥٨٠٨٤

E. Mail : asfour @ onebox. com

الغيمة

التى لم تمطر

حلمى سالم

عرفتُ مـحمـد عيسى منـذ ما يزيد على ربع قـرن كنا زملاء بكلية الآداب جـامعـة القاهرة فى أوائل السبـعينات ، كـان طالباً بقسم الاجتـماع بينما كنت طالبا بقسم الصـحافة . وعلى الرغم من أنه كان مشاركاً - مـثل الجميع - فى الثورة الطلابية فى ذلك الحين ، إلا أنه انفراد بـيننا بملامح الانطواء وقلة الكلام والانزواء وعدم التكيف . وبعد التخرج تفـرّقت بنا السبل بضعة سنوات ، ذهبتْ به الريحُ فيـها كلَّ مذهب : عـمل بالسويس فترةً ، فـهو صعيـدىٌّ ولد وعاش بالسويس ثم تهـجَّر مع مهجَّـرى مدن القناة بعد هزيمة يونيـو ١٩٦٧ ، ثم سافر بضـعة شهور إلى السـعودية لكنه «لم ينسـجم» ، فعـاد إلى الاسمـاعيليـة ، وافتـتح مـحلاً «للحدايـد والبويات» بها ، لكنـه فشل بعد عـامين . وهل يفلح قصـاص مثـقف تقدمىّ خـريج اجتـماع فى بيع وشـراء الحدايد والبويات ؟ . غيّر نشاط المحل إلى مكتبة فقيرة للأدوات المدرسية «قرطاسية» ، لكنها تعثّرتْ وظلتْ متعثرة ، إلى أن دعاه الصديق الشاعـر والفنان محمـد بغدادى للعمل فى إدارة «المركـز المصرى العربى للطباعة والنشر» منـذ شهور قليلة . وهو المركز الذى كان جالسـاً إلى مكتـبه فيـه صبـاح يوم الاثنين ١٩ فبـراير الماضى ، وشرب قهوته ، ومات بهدوء مثلما كان ، وبإنزواء مثلما عاش .

أثناء هذه المسيـرة المضطربة الهادئة كـان قد تزوّج وأنجب ثلاثة أولاد . واستـدان من البنك بضعـة آلاف كان يسدّدها مـقسطةً ، ورحل وما زال الجـزء الأكبـر من الدين مسـتحقـاً . وظل يكتب القصص القـصيرة (لنفـسه ولأصدقائه فى الـغالب) حتى شجّـعه أصدقـاؤه على النشر ، فنشر مـجموعتـه القصصـية الأولى على نفقته الخاصة بعنوان «محطات للحزن» ، ثم نشر مجموعته الثانية «أحلام وسكاكـين» عن مطبوعات ثقـافة الاسـماعـيلية ١٩٩٩ . وصار أمين مسـاعد حزب التجمع بالاسمـاعيلية . وناوش بعض الشـعر - بالعـاميـة والفصـحى - وبدأ فى فكرة رواية طويلة . ووضع عمـلا مسـرحيا للأطـفال . أما مـجمـوعته القـصصـية المخطوطة «الغيمة التى مرّت ولم تمطر» فقد تاهت فى دهاليز هيئة الكتاب زمناً ، ثم تاهت فى دهاليز هيئة قصور الثقافة زمناً آخر ، وظلت حتى اللحظة الراهنة «غيمة لم تمطر» .

رغم معرفتى الطويلة بمحمد عيسى ، فقد كنت دائم التفكّر فى شخصيته وحالـه : هذا الفتى الموهوب ، الذى تجمعت عليه عدة عناصر «من سـوء الحظ ، إلى انحطاط حياتنا الـثقافيـة ، مرورا بإنسحاب نفسيته إلى الداخل» لتجعل منه شخصيةً درامية مكنوزة . وقد أنتج تفكيـرى فيه - ذات يوم - قـصيدة شـعريةً قصـيرةَ ، صنمـهـا ديوانى «الواحـد الواحـدة» قلتُ فـيـهـا ، تحت عنوان «الاسماعيلية» :

من ذلك الذى يقطع الجنوب فى سكْتة؟ .
تباعد المساء فاختار أن يبقى منفرداً فى الحانوت .
وحينما صار إخوانه أصحاب توكيلات .
ظل يعيد وحدَه ترتيب «الأربعين» .
وضع النادلُ الخضرواتِ فى فخّارةٍ .
فأيقظ الفتى خزانتَه :
حذاء الجندية فى قدمِ المتفلسف ،
مأدبةُ الجرجير ،
شعار : يا حاكمنا بالمباحث .
تحدّث رجلٌ عن تيمة الجسّد فى عمل الطليعيين .
ساعتَها : صارت عيناها بديلا للخضْر .
وحطّتْ نورُها على موضع الرمحَ .
هذه هيئة الفتاة ،
وهذا هو الرملُ الذى ذوَّبه المهندسون .
قالت امرأة :
كل سطر يفتِح المسّامَ تحت كَشكَشَاتِ الثوب .
والت البَصّارة :
فى بطن كلٍّ ضفدعةٍ مفتاحُ عدن
فمن ذلك الذى يخطُّ :
انكسرَ الوزنُ وضلَّتَ الشيوخ» .

ولعلى كنت أشير - فى تلك القطعة - إلى السنوات التى لم نجد فيها ما يقيم الأودَ سوى الخبز والجرجير ، أيام الجامعة والسكن المشترك ، وإلى تعاوننا فى تأليف بعض شعارات الحركة الطلابية ، وإلى الليالى التى احتضن فيها عيسى عواطفَ زملاء جيله ، وإلى تباين المصائر بينه وبين بعض رفاقه ممن صاروا قادرين مقتدرين .

عيسى نفسه نعى ذاتَه مبكراً ، ورثى تباين المصائر الأليم بينه وبين أصحاب الزمن الجميل فى قصيدته «سَفَر» ، التى نشرناها فى «أدب ونقد» ، منذ شهور ، حين قال :

«وتسافر
من أول ضلمة جوف الأم
ولغاية سجن المتر فى متر
وما بينهم
نوتة تليفون مزحومة
وأصحاب مش فاضيين لك
وأصوات بتقولك فى «الأنسر»
أترك
أترك بعد سماع الصُّفارة
وتسافر
وما توصلش»

«رثاء المصائر» عند محمد عيسى هو ما إلتقطه الناقد عزازى على عزازى ووصفه بالتأكيد على أن تجارب عيسى - فى القصة والشعر - تدخل إلى قارئها من باب الاختزال ودون ضجيج يشغله صدقُ التجربة عن التجربة ذاتها ، فيختزن خيرات العمر ليختزل فى أسطر قليلة أو أشطر شحيحة . فهو يختزل رحلة العمر «من أول ضلمة حارة كفر هلال ، ولغاية قعدات الجريون الماسخة» ، وما بينهما كانت رحلة السفر فى الحياة والقصيدة . ولأن المسافات طويلةٌ بين البدايات وأخر محطات السفر التى وصل إليها قطار التجربة ، فنحن لسنا أمام قصيدة اقتناص اللحظة واستلاب المعانى العابرة ، لكننا أمام حالة سرد روائى طويل اكتفى صاحبها بسردية شفرية تلغرافية يعتمد فيها على فطنه القارئ، المشيِّد للنص ، فى ملء فراغات النصّ ، لأن الاستجابةَ عند المتلقى سوف تعنى نوعا من المؤازرة للفعل الحياتى المضمر وراء النص .

فى الفرجة بين الليل والليل أسعى بلا ملامح تقريباً ، لكن حين يصير الليل لى أتذكر هويتى ، أضمّ بين أصابعى قلماً وبين جوانحى ، أشخبط فى أوراقى : نرجس ، روح ، حزن ، فلوس ، إله» . هذه اللغة ، من مجموعة «أحلام وسكاكين» ، ويرى الناقد د . مجدى توفيق أنها لغة من تيار الوعى ، فيها مجازات وفيها جناس القلم والألم ، وفعل الكتابة فيها استجماعٌ لشتاتٍ تناثرت مفرداته فى النفس .

عندما ترافقنا فى حضور ندوة مناقشة كتاب عز الدين نجيب «فنانون وشهداء» بمعرض الكتاب لم أكن أعرف أن هذه هى المرة الأخيرة . وعندما نشرنا له فى «أدب ونقد» الحوار الذى أجراه مع محمد حمام لم أكن أعرف أن النشر الأخير . وعندما هاتفنى محمد بغدادى ونبيل عتريس ليخبرانى أنه رحل ظننتُ أنهما ينفذّان فىّ مقلباً . ولكننى حينما أعدتُ قراءة قصيدته «سفر» أدركت أن الفتى كان مسافراً بالقوة ، ولم يكن ينقصه سوى أن يسافر بالفعل . وحينما أعدتُ قراءة «أحلام وسكاكين» أدركتُ أن سكاكين عيسى أحلامٌ وأحلامه سكاكين ، وقد وقعت إحدى سكاكين ذلك الحلم على رقبته النحيلة . أيها المسافُر : هل وصلتَ ؟ . أيتها الغيمة التى لم تمطر : هل عدت إلى المنبع الأول ، أم أنحللت فى تراب الأرض ماء وخصباً وبذورا ؟ هل تمّتْ المطابقةُ الكاملةُ بين القلم والألم ؟

الكتاب الأول

محطات للحزن

«أتواتينى الجرأة ...

على ازعاج الكون»

ت . س . إليوت

الحادث

الضـــوء الفـــضى ينسل مـــن بين أصـــابع الليل ، ويدرج فـــوق الأسفلت الداكـــن الذى يخلو الآن من أى مساحـــات تخفـــيه عن الأعين . . فكرت وأنا أفـــتش عن شئ أفكر فيـــه : أنه وجود بلا معنى ، وعندمـــا عبرت الشـــارع قلت ربما كان هذا خـــاطئا بعض الشئ ، ولكنى عندمـــا رأيت الصبى الذى يحـــمل سلال الخـــبز ، حافـــى القدمين ، وعـــسكرى المرور الذى استـــسلم لغفـــوة ربما لن يقـــوم منهـــا إلا بلســـعة مـــن شمس الصـــبـــاح - أدركت أننى قـــد توصلت فعلا إلى حـــقيقة كنت أبحث عنهـــا ، وربما بدافع الرغبة فى العبث . . اقتربت من العسكرى ولكزته فـــصحا مذعورا ونظر إلى متسائلا :

- فيه حاجة ؟

- شفت الحادثة ؟

- حا . . حادثة ؟

- آ . . فى الناحية التانية .

نهض من فوق الأحـــجار المكومة ونـــظر إلى الطرف الآخر من الميدان ثم قال وهو يتثاءب :

- حصل إيه ؟

- الراجل وقع على الأرض . . وباين عليه اتعور .

- راجل مين ؟

- الراجل اللى وقع .

نظر إلى بشك ثم جلس وواصل النوم .. لكزته ، فقال بغير أن يرفع رأسه : نعم ؟

- اسمع ، أنا بأحملك المسئولية وأنا ح أعر ...

رفع رأسه فجأة وصاح بحدة :

- بقى اسمع أنت .. من ساعة مفيش ولا عربية عدت من هنا ، يبقى حادثة اية اللى تحصل .. وبعدين ، فين الراجل اللى وقع دا ؟ يا أفندى أنا عارف شغلى كويس . يحملنى مسئولية قال .

تركته وذهبت إلى الطرف الآخر من الميدان ، كان جالسا وقد وضع رأسه بين ركبتيه ، ربت على كتفه المحنى فرفع رأسه ، كان وجهه يشع بنور غريب .. وكان صديقى .. قلت له : أنت سليم .. ما اتعورتش ولا حاجة يعنى ؟ بدا أنه لا يعرفنى ، قال : لا أنا بخير ، قلت له : تيجى معاى ؟ فقال : لا .. أنا عندى مشوار . وعندما نصحته بأن يقف ليطمئن أنه لم يصب بسوء .. لم يبال .. قلت له أننى أريد خدمته واننى أبلغت العسكرى عن الحادثة ولكن العسكرى الملعون لا يريد أن يصدق ، نظر إلى نظرة خالية من المعانى - أو ربما حملت معنى لم أفهمه - ثم عاد فدفن رأسه بين ركبتيه وغرق فى نوم عميق .

***

قفزت فى «الترولل باس» الذى يتـهادى بثقله الضخم وقد بدا منظره فى الشارع الخالى «بسنـجتيه» الرفيعـتين مضحكا . . قلت للسائق وأنا أصـعد درجة السلم الثـانية : شفت الحـادثة ؟ قال يا فتاح يا عليم . . حادثة ايه ؟

أخرجت له الصورة المتآكله الأطراف وقلت له وأنا أمد يدى بها له : عبلة .

أوقف الرجل العربة الضخمة وتناول الصورة وحدق فيها ، ثم قال معقود الحاجبين : مين دى ؟

- دى عبلة . . كنت بحبها . . وامبارح سافرت . . هى يعنى ما ركبـتش قطر ولا طيارة ولا حاجة . . لكن يـعنى سافرت . . أنت واخد بالك ؟

هز الرجل رأسه ونظـر إلى بعينين ونصف نائمـتين ثم مد يده إلىَّ بالصورة . . وبغيـر أن ينبس بكلمة . . مضى يدوس الطريق المفروش أمام عربته الضخمة .

* * *

قلت للكمسارى : تذكرة الحسين .

- ما بيرحش الحسين .

- أمال بيروح فين ؟

- الزمالك . . العتبة . .

- تذكرة العتبة .

ناولنى التذكـرة وهو يقول ببعـض السخرية : مـفيش ترووللى بيروح الحسين .

ورغم المقاعد الكثيرة الشاغرة ، اخترت الجلوس بجوار الشاب الذى يحمل رأسا صغيرا وكومة من الكتب .

- صباح الخير .

- صباح النور .

بعـد أن جلست لاحظت أنه يتـصفح وجـهى . . نظرت إليـه فجأة ، وبنية مبيتة .

- طبعا ماشفتش الحادثة .

- حادثة أيه ؟

- أمى .

- مالها ؟

- مش عارف . . فيه فجوة . . فـجأة حاجة اتحطت . . جايز الغربة . . مش عارف . . عمرك نمت على بلاط ساقع ؟

- لا .

- طيب ، عن اذنك .

تركـته وجلست بمفـردى فى آخر العـربة ، وألصقت وجـهى بالزجاج .

* * *

فتشت جيوبى واستطعت أن أحصل على سيجارة منسية وبعض حبات «اللب» . . فكرت أن هذا لن يمنعنى من التفكير فيما لابد أن أفكر فيه . . وعندما لم أجد فى جيبى كبريتا ، ألقيت بالسيجارة ووطأتها بقدمي . . وابتلعت حبات اللب بلعا .

كانت الحياة على وشك أن تدب فى أوصال شارع الأزهر عندما رأيته أمامى . . كان يلهث . قلت له : جاى منين ؟

- م الحسين . . شفت الميدان ؟ حاجة غريبة . . كنت واقف فى النص . . نص الميدان بالظبط . . لقيت رأس الحسين جنبى ، والدم نازل منها شلالات . . وبعدين الميدان قعد يضيق ويضيق . . كان نفسى أجيب رأس الحسين . . لكن كانت بتهرب منى كل ما أمسكها . . اضطريت أجرى لوحدى .

- ما تيجى معاى نشوف حصل ايه ؟

- لا ، أنا عندي ميعاد ، سلام .

- تاهت منى بعض الحقائق التى أمسكت بها . . تذكرت وجه المرأة المتسولة التى وقفت بيننا تسألنا شيئا ، والتى مضت عندما لم ينظر إليها أى منا . . نظرت ورائى أبحث عنها فلم أجدها ، صحت أما . . أما . ولكنها لم تكن هناك .

واصلت المسير وأنا أحاول أن أتذكر أغنية قديمة . . لم أفلح ، حاولت أن أشغل تفكيرى بتصفح وجوه الجنود المتعجلين والباعة الذين يدفعون عرباتهم ، ولكننى كنت أعرف أن كل هذا لن يمنعنى من أن ألقاها وفى نفس المكان .

- أنا قلت لك قبل كدا .. أصدقـاء .. أنت تصورت حاجة مش مـوجودة .. احـنا زى ما قلت لك مـش أكثـر من .. (دم الحسين يهرب راكبا الترووللى باص .. والدم الآخر فى الشوارع ، وعبلة فى كل مكان) .

مشـينا صامـتين ، فجـأة لمست كتـفى وقالت : سـلام ، ثم ركضت . صحت : فيه ايه ؟

- لا مافيش .. عندى ميعاد .. سلام .

مارس ١٩٧٦

أدهم الشرقاوى يدخل القاهرة

١ - أدهم يدخن الحشيش فى الدراسة :

قال الحاج عطية وهو يقطع المخدر بمطواته «قرن الغزال» وينظر إلى الرجال الذين افترشوا الكليم وأسندوا ظهورهم إلى حوائط الحجرة المعبأة بدخان رائحة نفاذة :

- عهد على يا رجال إذا ما نجحت فى الانتخابات لأطالبن بتوفير المخدرات الجيدة الأصيلة ، المخدرات التى كنا نشربها منذ سنين ، وليكونن لكل منكم عشرة رجال يخدمون عليه فى مجالس الآنس .

قال المعلم صبحى وكرشه الكبير يهتز من الضحك :

- هذا هو النائب الذى سيجعل المخدرات تباع فى الجمعيات مثل الرز .

- أى والله ، عهد على ، ستعود أيام زمان ومجالس زمان .

قال المعلم أبو سعدة :

- جازاك الله يا حاج ، لماذا تذكرنا بأيام زمان حيث كان الـ . . .

(آه ، جازاك الله يا حاج ، أنت لا تعرف يا حاج ، أيام زمان ، «ست الدار» و «ياسمينة» ، المدرسة والتلامذة ، المغارة والباش أغا ، بدران والرجال والشاى الثقيل جازاك الله يا حاج) .

دارت الجوزة دورة ، وتشابك الدخان وهو يتراقص ببطء .

- مرحب برجال الشرقية «الجدعان» .

(جدعـان ، هأ ، أين هى «الجدعنة» يـا معلم ، كان هـذا أيام زمان ، ولكن ، حين تصبح عاجزا وتهـرب لمجرد أنك هزمت مرة ، مرة واحدة ، ومن من ؟) .

خفت الرؤوس ، وانتشت الأحـاسيس ، دارت الجوزة دورات وأطارت النكات بوقار من ظل إلى هذه اللحظة وقورا .

- مسطول كان يمشى فى الشارع فقابل . . .

(لو يعرف صـديقى الطالب أننى أجالس مثل هؤلاء القـوم لما عرفنى ، ولكنك لا تستطيع - يا صغيرى - أن تدلنى على طريقة أخرس بها العويل الذى يملؤنى ، غير المخدر الذى تمتلئ جيوبهم به) .

تخرج الضـحكات مع الأنفاس عاليـة وفاجرة ، ويأتى ذكـر «النسوان» ونوادر المعلمين ومغامراتهم ، فيصاحب القـهقهات شخرات الرجال تخرج من أعماق حلوقهم مارة بأنوفهم .

- كنت يومها مـازلت أملك العربة المرسيدس ، وسـألت عنها فعلمت أنها زوجة أحد العمال الذين يعملون فى ورشتى ، فكلفته بالذهاب بالعربة المرسيدس إلى أسوان أى والله إلى أسوان ، ثم . .

(دماغك خفت يا أدهم ، ياه المخـدرات ، المخدرات ، لولاها لقضيت ليالى سوداء فى هذه المدينة الغريبة) .

- وكمـمثلى السينمـا ، بنت القحـبة ، تقول لى «أحـبك» ، بعد هذا العمر الطويل ، وأنا أحبها و . . . . .

(هل أنت التى تبدين بين الدخان ؟ لـماذا تبدو عيناك ذابلتين ؟ هل هو البكاء ؟ لغيبتى أم لهـروبى ؟ لا ، لا ، كونى عادلة يا «ست الدار» ، ألم

أثار لعمى بما فيه الكفاية كنت سأستمر ، أى والله أيتها الغالية . . لم تكن لروح الانتقام حدود ، ولكن . . آه) .

أمسكت ذراعها فسكتت ، أمسكت كتفها فابتسمت ، انسحبت إلى صدرها فضحكت وجرت . .

(لم تبخل على بشئ ، لا تهمنى الأقاويل التى انتشرت فى البلدة عن إننى هربت إلى القاهرة سعياً وراءها ، أنا هربت ، ولم تكن هى السبب ، ولكنها لم تبخل على بشئ . . فبين مجالس الأنس وفخديها أدفن ضياعى ، أه يا ياسمينة ، كم وددت لو أبكى على صدرك ، ولكننى لم أبد مرة ضعيفا أمامك أو أمام غيرك) .

- لقد انستمونا والله يا معلمين ، مساء الفل .

مد الحاج عطية يده بالجوزة إلى المعلم صبحى وهو يمر باليد الأخرى على كرشه الكبير .

- ألم يحن الوقت ، وربنا «ينتعك» بالسلامة .

ضجت الحجرة الصغيرة بالضحك .

- عشرون عاما وهو حامل ، ومن يوم أن عرفته وربنا لا يشاء له الستر ، عشرون عاما و . . .

(عشرون عاما ، عمر ، عرفت بدران أكثر من عشرين عاما ، ثم . . . ، عندما جاء وقال لى «صباح الخير يا باشا» أحسست إحساسا كان غامضا ولكنه قوى ، قال لى «أنا جبت لك الفطور ونسيت أجيب لك العشا» كان احساسى بالفجيعة غامضا ، وقلت (يا خوفى يا بدران ليكون دا آخر عشا» وفى لحظة ، آه . . .) .

هدأ الرجال قليلا ، وسكنوا سـابحين كل فى ملكوت خاص به ، ومد البعض أرجلهم أمامهم فوق الكليم المترب ، بينما أخذ الحاج عطية والمعلم صبحـى فى إعداد أحجار الفـخار وكبس المعسل فـوقها و«بصمـها» بقطع المخدر ، راح المعلم سعدون يروح فوق الموقد بطرف جلبابه .

- اسمعوا يا جماعة . . أنتم أجدع خلق الله ، ولأجل هذا ستسمعونى ، هه ، اسمعـوا ، أنا «مرة» ، لا تعجبـوا . . أى والله أنا «مرة» ، أنا لـست جدعـا كما قـال المعلم سعـدون وكما يظن صـديقى الطالب ، ولكن . . وأحلف بالله العظيم ، أن كل ما حدث ، لم يكن باسـتطاعتى أن أمنعه ، ولو كان أحدكم مكانى لأصبح «مرة» مثلى ، حتى صديقى الذى أعرف أن له رأسـا ينطح الحجـر و قلت لهم «تحرم الراحـة والخونة دول عـايشين ، ويحـرم على «النوم وهم موجـودين» ولم أرتح ولم أنم ، قتلت بـاش أغا فجاء غـيره ، ولو كنت قتلته ، لجاء ثالث ورابع فـماذا كنت أفعل ؟ كنت سأظل أقـتل وأقتل وهم يجيئـون ، فيسـجنون «ست الدار» ويغرون بدران لخيانتى ، هربت يا رجال ، عـاهدت «ست الدار» بأن أنتقم لها وبعد ذلك أتزوجها وعندما ذهبت إليها بعد أن قتلت قاتل أبيها ، قالت أن هذا الكلب لا يساوى عـمى ، قتلت الباش أغـا فقالت هـناك آخر ، وكانت ياسـمينة تدعونى ، وكنت أشم رائـحة عرقهـا عندما كـانت تميل على كتفى فـيزأر الوحش بجوفى ، ولكنها عندما خانتنى قتلتـها ، فماذا يمكن أن أفعل أكثر من هذا يا رجال قولوا لى ، قولو لى .

٢ - أدهم يشترى البرتقال لياسمينة ولكن ...

الجو بارد ، هل يمكن أن تكون شوارع هذه المدينة أكثر بردا من الجبال ، ببعض الحطب المشتعل كان الدفء يملأ المغارة ، وهنا - رغم الملابس الثقيلة التى تغطى جسدى - يصل البرد إلى نخاع العظام ، عربات قليلة تعبر بين الحين والآخر ، يبدو الشارع الطويل المضاء بلمبات بيضاء - بعدها خاليا إلا من شخص أو اثنين . حسبت النقود التى تحويها جيوبى ، من الممكن أن أشترى لياسمينة شيئا حتى لا أدخل عليها بيدى فارغة ، كان الفكهانى وابنه الصبى متلاصقين وقد ألقيا على كتفيهما بطانية سوداء ، وامتدت أياديهما إلى النار التى تندلع من الحطب المشتعل أمامهما .

- مساء الخير .

- أهلا ، مساء الخير ، يا بيه .

- كيلو برتقال ونصف «بلدى» .

لم يبق سوى أن أعبر ثلاثة تقاطعات وأصل إلى بيت «ياسمينة» ، عندما عبرت التقاطع الأول أحسست بصوت يشبه وقع الأقدام خلفى ، الملاعين ، أصبحت أقضى الوقت بين الشطرنج وياسمينة ودخان المخدرات . فلماذا يتبعنى عيون الأغا ، هؤلاء الأوغاد ، مضى الزمن الذى كنت أقول - فيه «أنا أدهم اللى هيخدم أهله وبلاده . . أنا أدهم الحر . .» ولكنهم ما زالوا يطرقون رأسى بوقع أقدامهم ، من قبل ، كنت إذا سمعت وقع الأقدام خلفى ، ألتفت ورائى ولكن صديقى الطالب الذى تعرفت عليه فى المقهى قال لى أن هذا تصرف خاطئ ، وأن على أن أتصرف بهدوء ، بعد لحظة كان الرجل الذى يلبس بذلة أنيقة قد حاذانى .

- إذا سمحت .

التفت ناحيته ، كان يبتسم .

- هل يمكن أن تعطينى برتقالة ، إذا سمحت .

وضت يدى فى «الكيس» ، انتقيت برتقالة صغيرة وأعطيتها له ، وأخذها وابتسم .

- شكرا .

- أسمع ، هلى تتبعنى من أجل برتقالة ، هه ، أعلم أننى مازلت أدهم الذى دوخكم ، هل تراقبنى لتعرف إلى أين أنا ذاهب ، إلى ياسمينة ، وياسمينة واحدة منكم ، فلماذا تتبعنى ؟ مازلت أدهم الذى تعرفونه ، ولكن وقع أقدامكم أصبحت تزعجنى . . تزعجنى .

- هل وقع أقدامى يزعجك ، أنا أسف ، مع أنى لا ألبس حذاءا ، أنظر .

وقف مرتكزا على احدى رجليه ومد الأخرى أمامه ، شد بكلتا يديه بنطلونه إلى أعلى ، لم يكن هناك حذاء ، وكان الطين يلوث حافر ماعز .

عندما وقفت أمام باب شقة ياسمينة كنت ألهث بشدة ، وصوت قهقهات الرجل خلفى ما زالت تملأ أذنى ، ولم أرفع أصبعى عن زر الجرس إلا بعد أن فتحت الخادمه الباب ، وعندما دخلت اكتشفت أن يدى خاليتان وأن صدرى يعلو ويهبط بشدة ، واننى تغيرت كثيراً .

كانت على شفتى ياسمينة ابتسامة حلوة عندما ولجت الحجرة انقطعت عندما لاحظت حالتى كانت نصف مضطجعة على السرير وقد غطت نصف جسدها باللحاف الزاهى اللون .

- ماذا حدث ؟ هل حدث شئ ؟ تعالى .

عندما وسدت رأسي صـدرها وجرت أصابعها في شـعرى هدأت قليلا وحكيت لها عـما حدث قلت لهـا أنني لا أدرى كيف وقع كيس البـرتقال منى ، وانني عرفت الآن لماذا كان الصوت مـختلفا عن صوت وقع الأقدام الذى أعرفه «أتعرفين لماذا ؟ ربما لا تصدقين ، لأنه لم يكن صوت أقدام بل حافر ماعز أى والله رأيته بعيني حافر ماعز» .

قهقهت ياسمينة بصوت عال ، وهى تزيح عن جسدها اللحاف .

- مثل هذا .

رفعت ساقها ، وفى نهايتها كان هناك حافر ماعز .

٢ - أدهم يلعب الشطرنج فى مقهى على بابا فى ميدان التحرير :

للسحلب طعم لذيذ ، حـركت بيدقا ، قـال لى صديقى الطالب الذى تعرفت عليه في المقهى أن هناك أشياء تشـرب غير الشاى وطلب لى سحلبا ، ومن يومهـا وأنا لا أشرب غـيره حرك خـصمى الرخ إلى العـمود الأخـير مناورا ، فـسعـل صديقى الطالـب الذى يجلس بجـوارى مخـدرا اياى ، أقفلت الطريق بالفـيل محميـا بالفرس ، رشفت من كـوب السحلب الذى علت سطحه حـبات الفول السودانى ومـسحوق القرفة ، كـان الرجال فى المغـارة يتناوبون فى عمل الشـاى الثـقيل فى الكوز الأسـود ، يدفنونه فى الجمر ، ويظلون ملاحظين غليانه وهم يستـدفئون ، البيادق هى التى تحمى الملك . وعدتهم بالسلاح ووفـيت بوعدى ولكنى غفلت لحظة كانت كـافية ليصل خصـمى بوزيره إلى المنطقة التى تحصن فيها الملك ، فـكرت كثيرا ، نظر إلى صديقى الطالب وكأنه يوحـى إلى بالحل عبر نظراته ، أنه بارع فى

كل شئ هذا الصـغيـر ، هددت الوزير بالفرس ، بدران كـان بارعا أيـضاً ولكن ، من الخط الأخـيـر ، من خلف الـقطع جـاء الرخ «كش ملك» ، عاهدت نفـسى ألا أتخذ صـديقا بعـدما داس بدران على زناد الخـديعة ، ولكن هذا الفتى النحيف الوجه ذا النظارة أجبرنى على حبه ، كش ملك ، كنت من قـبل ألعب بالأغوات وهنـا أنا ألعب بقطع خشـبيـة بل وأهزم ، غطيت بالفـيل ، رشفت من السـحلب رشفة ، ست الدار كـان عندها بن وكـانت تصنع لى القهـوة كلمـا زرتها ، زعق الجـرسون (افـتح الراديو يا على»، حرك خصـمى بيدقا مهددا وزيرى ، قـال الراديو « لما لا أحيا » ، أعطيت فرصـة كى أهجم لكن قطعى أقل بكثـير ، ارتفع صـوت صديقى مصـاحبا الأغنيـة حتى غطى صوته على صـوت الراديو المرتفع ، قلت له مداعبا «أخرس» ، سأحاول أن أصل إلى ترقـية البيادق الثلاثة التى أملكها ، قال صـديقى «صحيح . . لما لا أحـيا وفى قلبى وفى عينى حـياة؟» الملك محاصر ، قلت له «هذا إذا كان فى قلبك أو روحك حياة» ، على أن أركز تفكيرى فى الرقعة فقد قـال خصمى «سيموت فى ثلاث خطوات» ، كنت أرسم الخطط لكى يموت الباش أغا ورجالـه فى خطوة واحدة ولكن غيرهم يجئ ، كش ملك ، جاء بـدران إلى المغارة و«المغارة أمـان» ، الملك أعزل فى مـواجهـة وزير الخصم والقطع الكثـيـرة ، قلت له «يا مرحب بالعـزيز بدران» كش ملك ، مـات ، ومازال صديقى يغنى «سـوف أحيـا ، سوف أحيا» .

أبريل ١٩٧٧

هل الصرخة ... ؟

صفحة خاصة جدا من الأوراق
الشخصية لحسن علي حسن مدرس
التاريخ بمدرسة الأربعين الثانوية .

توطئة :

أنا حسن على حسن ، مدرس التاريخ بمدرسة الأربعين الثانوية ، قتلته ، عامدا متعمدا قتلته ، ربما كانت الصرخة هى السبب ، وربما كان السبب هو لون وجه البنت وهى تبكى وترتعش ، وبالطبع هناك أسباب أخرى ، أعتقد أنه من المستطاع استنتاجها إذا عرف أنه ابن «الروبى بيه» الذى يقطن فى إحدى فيلات بور توفيق ، واننى «حسن على حسن» المدرس ، الذى يكره الخيل التى تجتاح كل شئ بعنفوان وحشى بغيض .

***

عالية ومن نوع غريب ، حادة كابرة تحمل شحنة كهربية ، هكذا أحسست ، وساكنوا هذا المكان ومرتادوه المستمرون لم يتعودوا - ألا الفضوليون منهم - أن ينتبهوا إلى - الصراخ ، فهو جزء من طبيعة المكان . لكن هذه الصرخة لم تكن من النوع الذى تعوده هؤلاء . كانت غريبة إلى الدرجة التى جعلت أمى وخالتى تتقلقلان من موضعيهما فوق «الشلت» و «أم شريف» تتوقف

عن جذب «الأنفاس» من الشيشة التى لايفارق مبسمها فمها ، وأنا ، أنا الذى لم يعد يثيرنى شئ فى هذا العالم تحركت فى اتجاه باب المقبرة الواسعة التى كنا نجلس فى بهوها ، كان الجميع على الأبواب ، ينظرون إلى بعضهم بعضا أو إلى الاتجاه الذى جاءت الصرخة من ناحيته ، كانوا ينتظرون أن يبدأ أحدهم فى التحرك ، وتحركت . . نعم ، تحركت ، لمحت عباس التربى مقطبا فتوجهت إلى ناحيته .

- فيه ايه يا عم عباس ؟

رفع الطاقية بيد وهرش بالأخرى مؤخرة رأسه .

- مش عارف ، دا مافيش حد اندفن فى النواحى دى من شهرين ، مش عارف ، أما أبص بصة كدا .

عندما تحرك عم عباس وأنا إلى جانبه ومن خلفنا حفنة من الرجال والصبية - كانت كل الشيشات فى كل المقابر قد توقفت الآن عن «الكركرة» ، بل إن بعض العجيزات التى لا تترك عروشها فوق الشلت منذ فجر الجمعة إلى مسائها - قد تركتها ووقفت صاحباتها عند أبواب المدافن .

لم نمش كثيرا فالى جدار أحد المدافن الكبيرة ، هو مدفن عائلة الروبى ، وبجوار الباب كانت هناك ثلاث دراجات نارية ، أحسست بمجرد رؤيتى لها أن شيئا فظيعاً لابد قد حدث .

* * *

لست نادما ، فمن حقى أن أكرهكم ، أن أكره الجميع وأن أعلن عن كرهى هذا ما كنت أزمع عمله عندما تواتينى فرصة مناسب ، أنها شمسى التى أنتظر طلوعها ، لقد فاتتنى كل القطارات ، لكننى مازلت أملك أن أكرهكم ، قلبى مدفون تحت رماد السنين الثلاثين التى عشتها ، هرمت ، هرمت ، اننى أتهم الجميع ، بعد أن أخلع النظارة وأضع رأسى على وسادتى الطويلة وجسدى على السرير العريض ، أغمض عينى ، وأتهم الجميع ، أننى قفصا أسكنه على أفندى حسن - الموظف بشركة المياه سابقا والمرحوم حاليا - والسيدة حرمه - والدتى ، وأكون أنا فى منصة القضاء ، ومنصة الإدعاء ، ومنصة الدفاع . ويكون حكم محكمتى فى النهاية الصداع . . الصداع . . الصداع .

حلمت ياما قد حلمت فى صباى . . لم تكم أحلامى محددة المعالم ، لكنى أذكر منها ورودا ووجه فتاة جميل وأشجارا وبلابل تصدح عند شباكى . . ولكن ، آه يا أبى هرمت «ولد ، تعالى هنا . . أما أخوك الكبير يكلمك مترفعش عينك فيه . . فاهم ؟ خد هنا . . أنت ماغسلتش رجليك ليه . . بعد كدا أن ما سمعتش الكلام أنا هـ . . .» .

لم يمنعه أحد من أن يجعلنى هرما فى الثلاثين ، لذا فأنا محق فى أن أكره الجميع ها أنا أتنفس الرماد ، وأرغم على التجوال داخلى فلا أجد غير الخراب والعدم ، فماذا أملك ؟ «تلاتين جنيه ، ووظيفة محترمة . . يا سلام ، طول عمره كان يقول أنا عايز

حسن يبقى أحسن منى . . وآدى» . اه يا أمى الطيبة البغيضة . . لا الجنيهات الثلاثون ، ولا تلك الوظيفة يمكن أن تحقق حلما واحد من أحلامى الكبيرة ، ليس فى «كفر راشد» أشجارا وزهور وليس فى المقابر التى ترغميننى على زيارتها كل جمعة بلابل أو شحارير . . . آه ، لو فيلا فى بور توفيق ، أو حتى كابينة على الشاطئ ألوح لزوجتى ذات الوجه الجميل وأنا خارج من باب حديقتها ثم أمتطى سيارتى أو حتى دراجتى النارية وانطلق . . لو . . اطلعى يا شمسى ، اطلعى ، فقد فاض بى الكيل وناء كاهلى بما حمل .

وكنت فى الليل أرى الخيول تهرب من مرابطها ولا أتحرك ، يسد الغبار الذى تخلفه وراءها حلقى ، وأقول لنفسى أن الأمر لا يعنينى ، مع أنى كنت أحس بسنابكها تدوسنى فى النهار ، من الصباح وحتى الظهيرة ، أضع رأسى بين أسنان التروس التى لا تكف عن الدوران ، فى المدرسة ، أعلق «طومان باى» كل يوم على باب زويلة ، وأفتح أبواب المدن للإسكندر ، وألعن الاحتلال الانجليزى ، امتدح سليمان الحلبى ، وأذكر أسباب الـ . . . . ، وعلى وأنا أفعل ذلك و أن أزجر وجها عابثا حيناً وأردع يدا تحمل مجلة جنسية أو خطابا غراميا أو «نبلة» حينا آخر . وكثيرا ما تضيع «الحصة» مع أمثال هؤلاء وابن الروبى وصحبته على رأسهم . كان ذا وجه أبيض وشعر طويل ناعم ، وجسد يميل إلى السمنة ، وفى عينيه وقاحة وعلى وجهه دائما ابتسامة عابثة كانت هى أكثر

ما يثيرنى ، ويكن كل منا للآخر قدرا كبيرا من الكراهية تبدو من جانبى فى أعـمال من قبيل طرده من الفـصل أثناء وجودى أو أن أشكوه إلى الناظر مطالبا بفصله وان عـجز حضرة الناظر عن طرد ابن الروبى بيه «الراجل اللى خيره علينا» .

وفى المساء ، عندما أجلس فى مقهى البلبوشى فى الإسعاف ، كان يتـعمـد أن يستـعرض نفســه أمامى هو وصـحبتـه الماجنة ، يدورون بدراجـاتهم حـول الميـدان ثم يقـفون أمـام المقـهى وهم يصخبون ويغمزون إلى بـكلام قبيح ، ويدورون مرة أخرى حول الميدان ومرة أخرى يقفون ويعاودون الصخب والغمز ، وأنا أحاول أن أبدو وكأننى لا أراهم أو أسمعهم واننى مشغول بلعب النرد أو الانصات إلى ما يجالسنى .

هل كنت أنتظر الصـرخة لكى أعتـرض الخيل التى تجـتاح كل شئ بعنفوان وحشى بغيض ؟

* * *

اختفى بيـاض وجهه الآن تحت حمرة قـانية . . كانوا ثلاثة ، كلهم من تلاميذى ، وهو ، كان زائغ العينين ، ولأول مرة بدون ابتسامته العابثة ، وأزرار بنطاله كـانت مفكوكة ، كان واقفا بقرب البنت التى ربما لم تبلغ الأثنى عـشر عاماً والتى كـانت ملقاة على الأرض ، جلبـابها مـرفوع إلى صـدرها ، وقطعة من مـلابسهـا الداخلية كانت ملقاة إلى جانبها وبجوارها قطع من الحلوى وعلبة مقفلة ، كانت فـى شبه اغماء ، ولكنها كانت تبكـى فى هستيرية

فيهتز جسدها النحيف بشدة . على الأرض وعلى فخذيها - حين تفتحها فى ألم - بدت بقع من الدم .

لاحظ «عباس» هذا عندما لاحظته ونحن نطل من باب المقبرة ، ولاحظه من بعدنا الرجال والصبيـة الذين دفعونا إلى الداخل دفعا ، كـان الآخران قـد وقفـا مـعا فى ركن من أركـان البـهو ، وقـد اخـتلطت اللامبـالاة فى وجهـيـها ببـعض الخوف . عندمـا رؤنا ارتعش الولد ذو الشـعـر الأشعث وجـرى الآخـران نحوه وهمـا يدفعانه .

- يلا بينا . . ثم جذباه .

كان عباس أول من تكلم . . هل للكلام مكان هنا ؟

استنى أنت وهو .

تقدم الجميع نحوهم ، لم يكن أحد يعرف ماذا يمكن أن تكون الخطوة القادمـة ، لذا وجد البعض مبـررا لكى يميل ناحية الفـتاة يستقصى حالهـا ، أما أنا ، أنا بالذات ، فقد كنت أعرف ، هى معـرفة اللـحظة . كنت أتقدم نحـوه ، نحو الولد المرتعـش وقد سيطرت على فكرة واحدة : أنه قد حان الوقت .

- انتو عايزين ايه ؟

قال الولد الطويل بتـبجح ، فكف الآخر عن الارتعـاش فجأة ولكن صاحبيه .

- يلا .

وكالخيل حين تحس بالخطر ، ركضوا مـقتحمين الجمع المذهول على البـاب ، مرقـوا منه ، وفى لحظات كانوا يمتطون دراجـاتهم

النارية وينطلقون وسط المقابر ، وحين أفـاق البعض مضى يجرى وراءهم . ولكن ، من يدرك الخيل لحظة خوفها .

قال عباس : نبلغ البوليس .

قلت : لا ، مش هنبلغ حد .

- نعم ؟ أمال هنعمل ايه ؟

- أنا هتصرف . . واذا ماعرفتش هبلغ البوليس .

فى المساء لم يظهروا أمام المقـهى فى ميدان الاسعاف ، ولكنى عندمـا دخلت الفصل فى صـباح اليـوم التالى ، كان هـناك وقد عاودته ابتسامته العابثـة ، وأن شاب بياض وجهه بعض الاصفرار ، أما الفتيان الآخران فلم يكونا حـاضرين . كانت الصرخة ما تزال تسكن تحت جلدى ، وثأر البنت التى لطخت دماؤها أرض المقبرة كان هو الدرس الذى نويت أن أعلمه لتلميذى .

- حسام الروبى .

غابت ابتسامته الدائمة مرة أخرى .

- قوم اقف .

سرت همهمة بين التلاميذ فـأنا لم أتعود أن أختبر أحدا بأسئلتى ، وتردد الفتى السمين قليلا قـبل أن يقوم ، ثم وقف واحدى رجليه مثنية قليلا .

- لماذا قتل سليمان الحلبى كليبر ؟

عادت الهمهمة مرة أخرى ، فـهذا السؤال واجابته خارج مقرر ما يدرسونه .

- سكوت ، أيوه . . ليه سليمان الحلبى قتل كليبر ؟ جاوب .
- مش . . مش عارف .
- طيب أنا مش هقـول لك ليه قتله ، ولـكن هقول لك ازاى قتله ، تعالى هنا .

دون مناقشـة أو اعتراض ، سـار الفتى المسافـة بينى وبينه فى خطوات بطيئة حتى أصبح أمامى . . لحظة وتطلع شمسى ، ولن تدوسنى الخـيـول بعـد ذلك أبدا ، جـاءت اللحظة . . وكـانت صرخة .

فبراير ١٩٧٧

القتل فوق أطباق الأرز الأبيض

(١)

انى آنست ناراً ، لم يكن حلماً ، فحز السكين في رقبتى آثاره ، والبيت هناك ما زال فى الشـارع المظلم الهادئ ، وأظن - بل أنى أكاد أوقن - أنهم ما زالو يضـعون الأطباق البيـضاء على المفرش الأبيض فى الحجرة المطلى جـدرانها بالطلاء الأبيض بنفس الشكل والتـرتيب . يا أبتى أنى آنسـت نارا ولـم أجـد على النار هدى ، وكنت قد حـكيت لى قبل أن أترك قـريتنا إلى تلك المدينة المداهنة أن فى الدنيـا خداع وأن شرها غـالـب خيـرها ، ولكني كنت أظن يا أبتى أننى أذكى من أن أخدع وأقوى من أن يغلبنى الشر . ولا أدعو لك أن ترى ما رأيته ، ولكنى لا أعرف كيف يمكننى أن أثبت لك أنك حـتى لو كنت مكانـى - بكل ذكائك وخـبـراتك وقوتك - لحدث لك ما حدث لى ، كل الأشـياء بيضاء ورائعة يا أبى ، لم أر فى حياتى من قبل أشياء بيضاء ورائعة بهذا الشكل ، «عبلة» أيضـاً بيضاء ورائعـة ، وقلت لها «يا عبلة ، أن هذا غـير ممكن الحدوث ، لابد أن أخـتيك تـتحدثان عن قمـيصى الوحـيد وتتندران بى بعـد أن أمضى ، وأنا لا أتيك إلا لكى أبيـعك جزءا من جهدى كى أقـبض منك أول كل شهر ما أقـتات به طوال هذا الشهـر ، لا . . لا يا عبلة ، أن هذا لا يحـدث إلا فى الأحلام

وفى الأفـلام» . قلت لها هذا وأكـثر منه وحـقك أيها الغـالى ، ولكن رعونتها كانت أكبـر من كل الكلمات ، وأنا شدنى وهجها الغريـب، فنسيت قمـيصى الوحـيد وأخـتيـها والقريـة وقروشى القليلة. والأرز ، الأرز الأبيض ، الناصع البياض أنت تعرف لون الأرز الذى تطبخه أمى ، وأمى حاذقة فى الطبخ - وهذه شهادتك أنت نفسك - ونظيـفة ، ولكن لم يكن لأرزها فى يوم من الأيام هذا اللون الناصع ، وأنا لم أكن فى يوم من الأيام أكولا ، ولكن لا أدرى كيف أضحت أمنيـتى لأيام طويلة - إلى حد تسرب إلى أحلامى عند النوم - أن ألتهم طبقاً منه . وعندما دعانى أخوها ، كنت أحس كداخل الجنة بطعم فـواكهها وحـورها الحسان ، ولم أجد على النار هدى، والقمر الدانى ألهب أصابعى عندما لمسته ، يا أبتى خدعت .

(٢)

« . . . وكنت أقبض فى أول كل شـهر عشرة جنيـهات كاملة ثمنا لعشرة حصص ، أى مجهود يومين فى المدرسة ، أى والله ، لم أرك منذ زمن ، هل لك فى كـأس أخرى ، يا ميـتر هات لنا كأسين مـن صنف أجود واعـتنى بالمزة ، لم أرك منذ زمن ، منذ ذلك اليـوم ، ولكن . . هل كنت أنت ؟ ربما ، لم أعـد أتذكـر شيـئا ، «صودا» لو سـمحت ، أرسلت اليـوم رسالة إلى والدى وبعثت له بتحـياتك ، نسيت أن أقول له أننـى قـدمت مـذكرة

فى قسم البوليس وأنهم حققوا معى طويلا ، يا ميتر أين المطلوب ؟ آ . . ماذا كنا نقول . . نعم ، آه يا صديقى ، كانت عندما تضع يديها البيضاوتين الرقيقتين على المكتب أمامى ، كنت أحس أننى أرى طبق الأرز الأبيض الرقيق - الذى كنت أراه كلما تسربت عيناى إلى حجرة السفرة القريبة من جلستنا فى الصالة - فأمد يدى إليهما فتحسب الأمر غراما ، يا للخمر السيئة ، اسمع يا صديقى ، أريد أن أكون صريحا معك . . سأدفع نصف الحساب وأنت تدفع النصف ، لا . . لا أريد أن أثقل عليك فتدفع الحساب كله . . هه . . أنت مصر ؟ فليكن . . ياه ، هذه خمر رديئة ، اسمع يا ميتر ، هات لنا زجاجة كاملة . نعم ، هات لنا زجاجة كاملة . واذكر يا صديقى ، أنها كانت ليلة صافية ورائعة كهذه الليلة ، وكنت قبلها هنا ، على هذه المنضدة القريبة ، أشارب صديقا كريما مثلك ، هل كنت أنت ؟ لا ، ربما يشبهك كثيرا ، المهم . . كانت الخمر جيدة ، ليست كهذا الكحول الذى يدعونه خمرا فانتشيت قليلا ، بل قل سكرت قليلا ، وأنا عندما أسكر أتذكر الأشياء الحميمة الرائعة فى حياتى وأستدعيها ، قلت لصديقى الذى يشبهك اننى إذا لم أر عبلة الليلة سأنتحر ، وكان الصديق الكريم الذى يحبنى لا يريد أن يرانى ميتا فقال لى «أتعرف بيتها ؟» قلت له «أكثر من بيتى» ، قال «لم تنتحر إذن ؟ اذهب» . كنت أشبه بالنائم وهو يقودنى إلى

الشـــارع الذى لايحـوى غـيـــر عـــدد قليل من الفـــلات ، شكـــرته ثم ودعنى ومـضى . . لا أستطيع أن أدرك الآن كـيف أوصلنى إلى هناك وهو لا يعـرف العنوان . . المهم . . لم أسمع وأنا ألج الشـــارع سوى صوت مـوسيقـى هادئة تنبعث من الفـيلا الوحيدة التى كانت إحدى حجـراتها مضاءة ، عندما وصلت إلى باب الفيلا التى أقصدها وجدته موصدا ، وكانت كل من الحديقة والمبنى الذى يتوسطها غـارقين فى ظلام شفيف ، وكان يجب أن أرى عبلة ، هـل يرضيك أن أنتحـر وبينى وبين رؤيتـها خطوات لمجرد أنهم نائمون ، لماذا يناموا وأنا مستيقظ ؟ هه . . قل لى لماذا ؟ فليستيقظوا إذن ، ناديت بكل ما أملك من قوة «عبلة . . عبلة» ، لم يرد أحد ، ولم يستيقظ أحـد ، ناديت «عبلااااا . . عبلاا» ، توقفت عندمـا أزعج عينى نور سطع فى الصـالة الفسيـحة ، أنا أعرف أنها الثريا الـضخمة المعلقة فى الصالة الفـسيحة ،وفى أقل من دقيـقة كان أخوهـا يقف أمامى بذلك الجلباب الذى يسـمونه «روب» وقال لى بأدب اعتدته فيه «مساء الخير» ، خير يا أستاذ ، ما الذى جـرى؟» قلت له «أريد أن أرى عبلة . . و . . وأريد أن آكل أرزا أبيض ناصع البياض» ، لا أخفـيك أننى كنت جائعا بعد أن شربت الخمر الجيد ، فالخمـر الجيد يحتاج لطعام جيد ، وهل هناك أجود من ذلك الأرز ، المهم ، نظر إلى الولد الكبـير بهدوء وقال «هل أنت سكران يا أستـاذ ؟ هل تعرف كم الساعة الآن ؟» غضبت وأشحت له بذراعى وصحت فيه «لا يهمنى أيها الفتى ،

أنا أريد أن أرى عبلة ، ويجب أن أراهـا ، ولى فى ذمتكم بعض الجنيـهات أريد أن أكل بهـا طبقـا واحدا ، واحدا فـقط من ذلك الأرز الذى تأكلونه» ، ابتـسم الفـتى ، وقلت فى نفـسى أنه ولد طيب ولن يخـيب رجائى ، وفـعلا ، قـال «تفضل ، تفـضل ، سوف ترى عبلة ، وسوف تأكل أطـباقا من الأرز الأبيض ، تفضل ، ودخلت . . .

(٣)

س - هل كنت تحبها ؟

جـ - كحبى للأرز الناصع البياض .

س - وهى ، هل كانت تحبك ؟

جـ - ربما ، كانت تقـول إنها تحلم أن تكون امرأة صيـاد وأنها فى أحيـان كثيـرة كانت تخلع حذاءها وهى تسـير فى حديقـتهم فتحس بالسعادة .

س - هل سبق أن تشاجـرت مع «منير» أثناء زياراتك من أجل التدريس لأخته ؟

جـ - كان دائما مؤدباً وطيباً . . أقـصد هذا ما كان يبدو عليه ، ولم نتشاجر من قبل .

س - هل أنت مـتأكـد أنه هو الذى قـابلك عندمـا ذهبت فى تلك الليلة ؟ لقد قدم الدليل على أنه كان ليلتها فى النادى .

جـ - أنا متأكد أنه هو الذى قابلنى .

س - ماذا حدث بعد أن دخلتما من باب «الفيلا» ؟

جـ - مشينا فى ممر الحديقة المؤدى إلى مدخل الفيلا ، كان يمشى أمامى وقد وضع يديه فى جيبى الروب ، وقبل أن نبلغ باب المبنى بخطوات قليلة ، قال «تعالى من هنا» ، مشينا فى ممر جانبى ، ولم أكن أهتدى فى طريقى بغير خطوات نعله ، وصلنا إلى باب جانبى كنت أراه للمرة الأولى ، توقف قبل أن يبلغه بخطوة واحدة وقال «آه ، بعد إذنك ، دقيقة واحدة انتظرنى هنا ، لن أتغيب» ، كان النعاس قد بدأ يداعب رأسى ، وبالفعل لم يغب سوى دقيقة ، كان فى يده مفتاح ، دسه فى قفل الباب الكبير ، . . .

س - بمعاينة المبنى لم نجد سوى المدخل الرئيسى ، وليس هناك أى أبواب أخرى للمبنى ، فهل أنت متأكد أنها فيلا عبلة التى حدث فيها ذلك كله ؟

جـ - بالطبع أنا متأكد تماماً ، أنها فيلا عبلة ، أنا أعترف اننى كنت سكرانا بعض الشئ ولكن ليس إلى الحد الذى لا أعرف فيه بيتا أدخله ثلاث مرات فى الأسبوع .

س - ماذا حدث بعد ذلك ؟

جـ - سـألنى إن كان مـعى كبـريت ، أعطيـته علبـة الثقـاب فأخذها ودسـها فى جيبه ، ثم فى سـرداب طويل مظلم قادنى ، توقفنا بعـد لحظة ، ثم سمعـت كأن بابا يفتح ، باب عـتيق لأنه أصر صريرا مزعجا ، قـال لى «تعال» ، اتجهت ناحية الصوت ، فلم أكن أسـتطيع تمييـز مكانه بعـينى ، أمسك بيـدى وولج إلى حجرة لم أستطـيع أن أميز حجمها أو مـعالمها لأننى لم أكن أرى شيئا ، كنت قـد بدأت أحس أن فيما يحدث شيئا غـير طبيعى ، فقلت «أليس هناك إضـاءة فى هذا المكان؟» قال «دقيقـة واحدة ، دقيـقة واحـدة فقط» ، ترك يدى ثم سـمعت صـوت خطواته ، وفجأة صوب باب الحجرة وهو يغلق ، ناديته «منير .. منير» فلم يرد ، كررت النـداء ، ولكن الصمت البـغيض الغريـب كان هو الجواب ، بدأت فى تلـمس ما حولى بكلتـا يدى ، اكتـشفت أن الحجـرة خاليـة تماما من أى أثاث ، فـيداى لم تعـثرا على غـير الجدران ، كانت جـدرانا رطبة ملساء ، كانت الخمـر الجيدة التى احتسيتهـا قد بدأت تفارق رأسى ، عندما درت حول كل الجدران أيقنت أن الحجـرة ضيقـة إلى درجة كـبيرة ، وعندمـا حاولت أن أعالج فتح الباب لم أجد مقـبضا ولا ثقبا ، بل لم يكن يميزه عن الجدران سـوى ملمسه الخـشبى اللزج ، وقفت فى أحـد الأركان أشبه بالمشلول ، كان قد مضى وقت طويل ، طويل جدا ، عندما سمعـت صوت الباب وهو يفتح ، «منيـر» ناديت ، لم يجبنى ،

«منير ، منير» ، بدأت أتحسس بيدى الحجرة فلم تصطدم بشىء . كان مجهودا خارقا ، كانت ساقاى ترتجفان ، فجلست على الأرض الرطبة ، وسدت رأسى ما بين ركبتى ، وفجأة . . أحسست بشىء صلب بارد يلامس عنقى ، انتفضت محاولا الوقوف فداهمتنى لطمة شديدة فوق رأسى ، وعاد ملمس الشئ الصلب البارد إلى عنقى بينما صوت له نفس الملمس يملأ الحجرة «لا ، لا تتحرك ، إياك أن تتحرك من مكانك» . كان هناك سائل حار أحسست به ينزلق فوق عنقى وعلى صدرى ، يختلط بعرقى الغزير ، وسمعت قهقهة تلاها الصوت البارد «ها ، هل تريد أن تأكل من أرزنا ؟ هه ؟» .

س - هل كان صوت منير ؟

جـ - لا ، لم يكن صوت منير ، لكننى منذ البداية أحسست أن هذا الصوت ليس غريبا على أذنى ، وعندما أردف صاحب الصوت «يا كلب ، عندما نمد لك يدنا بعظمة ، فلا تحلم بلحمنا ، فنحن . . .» . . عرفت الصوت ، عرفتها كانت عبلة ، صحت «عبلة . . عبلة ، لماذا تفعـ . . .» ، ولكن الشئ الصلب انغرس قليلا فى لحم عنقى «اخرس ولا تتحرك ، أتعرف ؟ سأجعلك تذوق أرزنا ، فنحن نتميز بالرحمة بأمثالك من كلاب الشوارع» ، أحسست بعد ذلك بالشئ الصلب يبتعد عن عنقى ، وبعد لحظة سمعت الباب وهو يغلق ، لم أغير من جلستى ، كنت عاجزا

عن أن أتخذ وضعا جديدا ، ولكننـى أحسست بشئ يلامس شعر رأسى ، ثم بدأ يضـغط على جمـجـمتى ، رفـعت رأسى أعلى محـاولا تحديد مـا يحدث ، فلم أسـتطيع تحريـكها ، انتـفضت واستلقيت على ظهرى ، ورفعت يدى فاصطدمت بجدار أملس ، كان سقف الحـجرة يتحرك إلى أسفل ، وكـانت المسافة بينه وبين جـسـدى الملـقـى فى هـــذه اللحظـة أقل من عـرض الكف . صحت . . صحت بكل ما أملك من قوة ، ثم لم أدر بشئ .

س - ماذا حدث بعد ذلك ؟

جـ - استيـقظت فى الظهيرة ، كنت فى حجرتى الكئـيبة على سريرى القذر ، وكان على المنضدة القريبة طبق به بقايا أرز أبيض ، ناصع البياض .

مايو ١٩٧٨

أسوان :

سمر ، والسمراء التى أحبها وكانت تحبنى قالت لى «من يصلح للحزن لا يصلح للحب» ، الرجل الأسمر ذو الجلباب الأبيض والذى يجلس بجوارى أعطانى بعض حبات البلح وطلب أن يعرف اسم الكريم وقال «عاشت الأسماء» . الولد الصغير ، ابنه ذو الأنف العريض كان مبتهجا ، أمسك بيد أبيه وهو يتقافز بين ساقيه وراح يحاول اخراج الطين من الأظافر الكبيرة ، مصمص الرجل وقال «معلوم . . ملعون أبو الغربة» ، وقالت «معدومة بيننا اللغة المشتركة» لم أرغب فى مناقشتها ، حقول وعواميد خشبية طويلة ، قلت لنفسى «ما زالت المسافة طويلة ، هل تكفى مواد الحزن ؟» فى بعض الأحايين تبدو كتلة من حوائط بيضاء متلاصقة وسط الحقول ، فى وسطها مئذنة قصيرة أو قبة ، وما زال الرجل يحكى عن الغربة ، لم أحس بطعم الغربة وبينى وبين أهلى ألف من الكيلو مترات لأنها كانت معى ، فى المحطة لم يودعنى أحد ، تسليت بالنظر إلى «القفف» و «القرويات» المملوءة بالبلح والعناب والدوم ، وأياد تدخلها من النوافذ وأياد أخرى تحملها إلى الأرفف الخشبية ، وكلام كثير من سلامات ودعوات ووعود بخطابات بتلك اللهجة المحببة التى أنستنى لهجتى القاهرية ،

قالت «أصبحت أسوانيا صرفا» وفرحت ، ولكنها قالت «أنت السبب ، أحلامك كثيرة ، ولا تتحقق فتحزن ، أنت السبب» ، وقال الرجل «أسبوع أجازة ، يومان يضيعان فى السفر ، هل تكفى خمسة أيام للأحباب» ، وقال الرجل القصير الذى فى مواجهتى وهو يعدل الطاقية المزركشة فوق رأسه «الحكومة لا شأن لها بالسفر ولا بالأحباب يا عم الحاج ، العمل عمل» ، قدمت للمدير طلبا بأجازة فدعانى إليه وقال «موعد اجازتك لم يحن» ، لم أستطيع أن أحكى له أنها قالت لى «أنت لا تصلح لشئ» وإن علاقتنا قد انتهت لأنها لم تقتنع بأحلامى ، قلت له أننى مسافر لكى أتزوج ، حرارة وغبار والرجل ما زال يثرثر ، مر بائع الشاى «لا والله لابد أن تشرب ، هل لنا غير أكواب الشاى» . فى الكازينو المواجه لجزيرة النباتات ، كنت أشرب الشاى وهى - دائما تطلب جيلاتى وكنا نضحك ، وفى النهاية قالت «ألم تأخذ درسا . . هل تريد أن ينقلوك بعد ذلك إلي الكونغو . . عش لنفسك ، لنا ولحبنا» ، مقام لشيخ فوق مرتفع بحائطه المخطط بلونين بدا وحيدا وحدة محببة بين الحقول التى تجرى إلى الوراء ، فى «الحكروب» عندما ذهبنا إلى خالتها أخذتنى وبنت خالتها إلى مقام أحد الأولياء ، أصرت ورضخت ، ولكننى اكتفيت بالوقوف عندى الباب ولم أدخل ، وأعطيت بعض القروش للولد الأبله الذى يحرس المقام ، المحطات الصغيرة يترك لها القطار الغبار ويمرق ، فكرت «أن المحطة تنظر الآن بحسرة وربما بغيظ» . وقال الرجل القصير «ولكن لا تنس أيضاً . . مصر أم الدنيا» ،

الحرارة تشتد فأفتح زرار القميص العلوى ، كنا نقطع طريق الكورنيش الطويل الطويل مشيا حتى الكازينو ، وكانت سمرتها وعيناها تتكلم أكثر مما تتكلم شفتاها ، وشعرها الخشن . . عندما قلت لها أن أحب ما فيها شفتاها وشعرها غضبت . اندهشت وقالت «أنت غريب» ، بدأ الكثيرون فى النوم ، الولد الصغير نام على حجر أمه التى لا يظهر منها سوى عينيها ، الرجل القصير مال وجهه إلى صدره وكادت طاقيته تسقط ، ومرة كنا نسير فى شارع السوق فاشترت لى طاقية ذات ألوان كثيرة وقالت أنها كانت تود أن تهديني واحدة تكون من عمل يدها فهى حاذقة فى عمل الطواقى «ولكنى كسولة» ، ازدحم الممر بباعة الشاى والمثلجات والفول السودانى ، وكنت دائما أعجب من كيفية احتفاظهم بتوازنهم فى اهتزاز القطار العنيف بكل ما يحملونه ، كروم النخيل تبدو بين الحين والآخر بجوار البيوت الواطئة وقد تعانق بعضها وظل بعضها قصيرا يهتز بين السيقان السامقة ، فى جزيرة النباتات التقطت البلح الذى تساقط فوق العشب ، انتقيت أفضله واعطيته لها ، ومن أحد أحواض الزهور المغروسة بجانبه لوحة تحذر من قطف أى زهرة جلب لى البستانى - بعد أن اعطيته شلنا - باقة شبكت بعض زهراتها فوق صدرها ، وألقينا بالباقى إلى النيل ونحن نلحظ فى انتشاء الموج وهو يلعب بالزهرات ثم يحملها بعيدا بعيدا ، قالت «أترى كيف تكون الحياة جميلة ، لماذا لا تعيش حياتك سعيدا ما دام فى استطاعتك أن تفعل ؟» ، ذكرتها بالحكروب وبيوته الواطئة والأطفال الحفاة ، . . . قالت «مالنا ومالهم» وقالت «أنا لا أريد أن أراك حزينا» فقط هذا كل شئ» . الناس يتغلبون على الحر والتراب بالنوم ، والشمس العنيدة تخرق الشيش الذى اغلقته ، علبة السجائر أوشكت على الانتهاء ، وصفير القطار يعلو .

الأقصر وقنا ومحطات أخرى :

رجال ، قالت لى «أتعرف لو أن لونك أسـمر لكنت رائعا رائعا» وقلت «كان من الممكن أن يحدث هذا لو أن أبى الصعيدى لم يتزوج أمى القاهرية ويترك البلد» ، الوجوه الخمـرية التى لونتها الشمس بسمرة خفيـفة والعيون التى تبرق بعزم أو بحزن والسواعـد النحيلة المعروقة ، كنت أحاول أن أتقى شر «القفف» والحقائب والســلال التى بدأ المودعون يمطرون الجالسين بجوار النوافذ بها وهى يلقونها لمسافريهم بين صيحات التوديع والتحذير ، قال لى أبى «هذه البـلاد لا يمكن أن تخلق إلا ناسـا من هذا النـوع ، أنها قـسـوة الحيـاة» ، فى آخر مرة كـادت قسوتها تقـتلنى ، قالت بلغـة كنصل حاسم دامى «أنت لا تصلح لشئ ، وأنا قررت أن تنتهى العلاقـة» . سنون ستمر قبل أن تخـرج سمرانى الحبـيبة من نخاع العظام وربما امتدت هذه السنون حتى أخر العـمر . ترعة عريضة وأخـرى صغيرة بينهـما طريق تدرج عليه عربات نقل وعربات تاكسى مكدسة بركـاب لا يمكن معرفة عددهم ، وقال الشاب الذى يرتدى الملابس العسكرية والذى وقف فى الممر بجوار الكرسى بصوت تعب «طبـعا كلكم لن تنزلوا قـبل مصـر . . إن شاء الله . . أليس كذلك ؟» ، الشمس تشوى الجلد وتصل حـرارتها من كل مكان فى العربة ، أقفلت الشيش ، قلـت لها «لماذا لا نحاول أن نخلق لغة مشـتركة ، الآن» ولكنها قالت «لم أعـد أحبك» ، بين الحين والآخر يبدو جسـر فوق إحدى الترعتين ، ومجموعة من الناس بجلاليب تستظل شجرة مجاورة ، تحطمت كل الجسـور . . ضعـفت ، استـجديت ، قلت «امنحـينى فرصـة أخرى» ولكنها قالت «من يصلح للحزن لا يصلح للحب» وقالت «لم أعد أحبك» ،

العسكرى فتح لفافة كان يحملها وجلس القرفصاء فى الممر ووضعها فوق ركبتيه «بسم الله يا جماعة ، لقمة صغيرة نأكلها سويا حتى يكون بيننا عيش وملح» تمتم الجميع بالشكر وبدعوات الهنا والشفاء ، ألح الشاب ولكن تمتمات أخرى أقنعته بأن يمضى فى طعامه وحيدا ، قشر بيضة وقطع من الرغيف «الشمسى» لقمة ألقاها فى فمه ، الحر والتراب صوت القطار ، قال والدى «كنا نغنى على صوت القطار ، ذلك الذى كان يسير بالفحم . . كحك بسكر . . . كحك بسكر . . ثم نقذفه بالطوب . . . أيام» ، كانت تغنى لى أغانى أسوانية أصبحت بعد ذلك أرددها معها ، وأنا غنيت لها كثيرا وكنت أقول لها «أمنيتى أن تغنى معى أغنية» ولكنها لم تفعل أبدا ، آه . . «أنا لو كان دلالى معدية كنت عديتك . . لو كان خدى رغيف عيش كنت غديتك . . ولو كان بقى قلة مية كنت سقيتك . . عينى اليمين موطنك وعينى الشمال بيتك» . . هذا جسر يؤدى إلى معبد «دندرة» ، أعرف ذلك ، فقد زرته مرتين ، آثار الفراعنة العظماء ، قلت لها «أنا ابن أحمس ومينا وحتشبسوت ، اننى أدافع عن ميراثى . . لماذا تعترضين على أن أكون ابنا لآبائى» ابتسمت ولم تقل شيئا ، الرجل الأسمر ذو الجلباب الأبيض عاد إلى الثرثرة «اشتريته يومها بنصف جنيه ، فى الأسبوع الماضى رأيت رجلا يسوق خرافا وماعزا قلت بكم تبيع يا عم قال اختر ما تشاء ، وضعت يدى على خروف صغير ، قلت اربيه ، قال اثنا عشر جنيها» ، بدأت الشمس تخفف من وطأتها ، حكيت لها عن المغنى الصعيدى الذى يعيش فى القاهرة ينشد أغانى الصعايدة وأولاد الحوارى ، وغنيت لها بعضا من أغانيه ، قالت «هذه أشياء خطيرة . . غن لى موالا» ، لبشات القصب فى نجع

حمـادى غزت الشبابيك ، وجـرى الأولاد الذين يحملونها فـوق الرصيف يساومون هذا ويزعقون فى وجـه ذاك «الثلاثة بقرش ؟ يفتح الله ؟ لماذا ؟ هل نبيع ترابا؟» ، كسـر الرجل القصير أحد العودين اللذين اشـتراهما ومضى يدعو الجميع لمشاركته ، استجاب الرجل الأسمر وأعطى ابنه عقلتين بعد أن قشـرهما له ، وبدأ الرشف ، أنا لا أرشـف غير الدخـان ، دخنت نصف العلبـة الثانيـة ، عندما قلت لهـا طيرى وليف طيـرك ، وقلبى صندوق من الفضة مايفتحوش غـيرك» قالت «هذا ما تصلح له ، أن تقول شعرا وتغنى وتحزن ، أنت لا تصلح لشئ» ،كـانت قاسيـة وكنت ضعيفـا ، وبأعوامى الثلاثين استجديتها «لماذا لا نحاول مرة ثانية» ولكنها قالت «لم أعد أحبك» ، الشمس تغوص وراء الجبال ببطء قاتل ، والليل يغزو كل شئ .

القاهرة :

الأبيض والأسود ، ماذا سأقول لأمى عندما تسألنى عنها ، كنت أحمل الرسائل بينهما ، وقـد جعلتهما يتحـابان دون أن ترى أحداهما الأخرى ، اهتزاز القطار فوق كـوبرى امبابة يقلب أحشائـى ، والنيل ساكن وميت فى غبشة الفجـر ، بدأ الجميع فى الاستعداد لمهاجرة مـقاعدهم ، وقال الرجل الأسمر «حمدا لله على السلامة يا رجـال . . نحن ما زال أمامنا مشوار آخر . . إلى الاسكندرية إن شاء الله» . القاهرة التى أحبها وأكـرهها ، أشتاق إليها وعندما ألاقيها أهرب منها ، قلت لها «اننى سعيد لأنهم نقلونى إلى أسوان لسـببين : اننى لقيـتك هنا وما كـان يمكن أن ألاقيك فى أى مـكان آخر ، واننى ابتـعدت عن القـاهرة» ، شارع أحـمد حلـمى يلمع أسفلتـه من أثر

أضواء المصابيح البيضاء فوقـه ، أختى الطفلة الصغيرة سوف تقول لى ككل مـرة «أين الهدية التى أرسلتـها لى (أبـلة) ، وأين هديتك أنت» ولن يكون هناك أى منهما ، أستطيع أن أقول لها أننى فقدت الحـقيبة التى تحتويهما ، مستشـفى «شبرا» ، حكيت لها عن البنت التى تعمد أطبـاء هذه المستشفى موتهـا لأنهم يئسـوا من علاجـها وقلت لهـا أننى رأيت أباها وهو يبكى ، أنزلت حقيـبتى من فوق الرف وسويت هندامى ، قـال الرجل الأسمر وهو ينهض «أليس مـعك ملابس ثقـيلة ، هواء الفجـر مضر يا ابـنى ، إذا كان معك بلوفر فـى الحقيبة ، اخـرجه والبسه» تذكرت أن البـلوفر الذى تحويه الحقـيبة هديـة منها ، ماذا يهم أن أمـرض أو حتى امـوت ، تساءلت «هل أتمنى الموت حـقـا» ، سلمت على الـرجلين والعـسكرى ونزلت ، أنفـاق المحطة ، باب الحديد ، ميدان رمسيـس ، تاكسى ، بيننا الآن ألف كيلو متر وقرار منهـا بأن تنتهى العلاقـة ، ولكنها سكنت تحت مـسام جلدى ، هل يمكن أن يحب انسـان آخـر كل هـذا الحب ، حكيت لهـا عن أصـدقـائى الطيبين فى القـاهرة الذين يقتسمـون سندوتشات الفول والسيـجارة الواحدة والقروش القليلة ، والـذى فشلت كل علاقـاتهم العاطفيـة لأنهم يحلمون مثلى، ميدان التحرير بدأ ينبض ببعض حياة، لحظات وأكون فى أحضانها، أمى ، أنها من القلائل الذين أفتقـدهم هناك ، لن أكتم عنها أنها قالت لى «من يصلح للحزن لا يصلح للحب» واننى لا أصلح لشئ ، سوف تستنكر هذا رغم أنها تحـبها ، وسوف أبكى على صدرها ، تـعودت أن أفعل هذا في المرات القليلة التى بكيت فيها ، كانت تبدأ بأن تضع كـفها الرقيقة فوق راسى ثم تسألنى «ما بك ؟ قل ، لا تكتمنى» فأحوطها بذراعى وأنفجر فى

النشيج ، هذه المرة لن أنتظر حتى تسألنى ، لن يفتح أحد غيرها الباب ، فهى الوحيدة ممن بالمنزل التى تستيقظ فى هذا الوقت ، لن أنتظر حتى تسألنى ، لن أخجل من إعلان ضعفى لها ، سأقبلها ثم أبكى .. أبكى كثيرا ، كثيرا ، ميدان لاظوغلى ، شارع خيرت ثم شارع السد ، صعدت السلالم قفزاً ، طرقت الباب ، فتحه أخى الأكبر ، كان بملابسه كاملة ولكنها مكرمشة وقذرة ، لاحظت بجزع رباطة العنق السوداء المتربة وعينيه الحمراوين المتفختين ، احتضننى وأقفل الباب ، «أين ماما» كان يقف ورائى وأنا أدور فى الشقة ، التفت إليه ، ارتمى فى حضنى وانفجر فى بكاء حاد .

مايو ١٩٧٧

الريح تضيع كل الأشياء

الولد جميل ، والبنت جميلة ، وسيارتهما جميلة ، والشارع الذى لا تكاد تلامس أرضه الإطارات ساعة الفجر جميل ، وضوء المصابيح يهوى من أعلى العواميد البيضاء إلى لا شئ غير الاسفلت الأسود الذى لا يرد على لطمات الضوء بغير البريق يحاول أن يشب إلى أعلى ، لكنه لا يستطيع أن يجذب انتباهى الذى رمح مع السيارة الطائرة والشابين الجميلين .

* * *

لم أكن أعلم أنى سأدخل لعبة لا أجيدها ، ندمت حين لاحظت - بل شعرت - أن نظراتهم تلعقنى ، وتهاويت إلى داخلى حيث تلقفنى اللاشىء الممقوت ، وقذفنى إلى واقع أكثر مقتا ، ورمانى فوق كرسى الحصير الذى أحتله فى المقهى الساهر الوحيد فى الحى ، وسط عيون يلونها نوم أو حزن أو تيه أو سخط ، كانت كلها تتقاسمنى مذ دفعت الباب المغلوق عليهم .

* * *

أحسست صوتى غريباً ، لكنى مضيت استحلب ألفاظى ببطء .

- أغبياء . . . . ، كلكم أغبياء .

شعرت بسخف الأسلوب ، فاعتليت الكرسى بقدمى ، كدت أقع (اكتشفت أن به رجلا مكسورة) استبدلته لآخر توسمت فيه القوة (ربما أوحى لى بهذه صورة الفيل الجالس على كرسى ، والمرسومة فوق قاعدته الخشبية) ، اعتليته جالسا القرفصاء ثم واقفا .

- يا بقر .

كان عليَّ أن أثبت ذاتى ، كما كان عليَّ أن أختار الأسلوب الملائم حتى أقنع «القهوجى» الذى كاد الشك فى عينيه يتحول إلى يقين يدفعه إلى تحريك قدميه .

- أنتم هنا تختبئون من البرد ، تحاولون الهرب من الريح الباردة ، لكنكم أغبياء ، أقصد بلداء ، فشبابيك المقهى مكسورة ، كسرتها نفس الريح .

توقفت حين سمعت صبى الميكانيكى ذا البدلة المهترئة السوداء يقول لصبى الميكانيكى ذى البدلة المهترئة السوداء شارحا . .

- سكران ، ابن العاهرة .

تيقنت من ضرورة كسبى لحلفاء ، واخترتهما حين انتقلت من الكرسى واعتليت الطرابيزة الخشبية .

- كلكم أغبياء ، لكن هذين الصبيين ليسا غبيين ، لكنهما «أولاد كلب» .

لم أعرف أنى أخطأت إلا حين صدم أذنى سبابها القذر الحاد .

- اسمع يا ولد ، أنتم أحسن خلق الله ، لكن يجب أن تخرجوا ، يمكنكم أن تشربوا المعسل فى الخارج ، لكن يجب أن تتعلموا كيف تواجهون الريح ، اخرجوا .

لكن يبدو أن خطئى الأكبر أنى نسيت أن ضم لحلفائى «القهوجى» الذى تحرك فى هذه اللحظة فى اتجاهى .

- يا أستاذ .

- اسمع ، الذى يقاطعنى يكون رجلا سيئا ، هل ترضى أن تكون رجلا سيئا ؟ أنت ولد عظيم ، عيبك الوحيد أنك تساعد الناس فى الهروب من الريح و . . .

- أى ريح هذه يا أستاذ ؟

- أنت لا تعرف الريح ، رغم أنها تكوى ضلوعك وتمزقك ، وتقرب ميتتك ولكن . . .

- يا أستاذ ، ألا تفق من هذا «الهباب» الذى تشربه .

ويبدو أننى رفضت أن أفيق ، لأنه نادى «مصطفى» - هكذا ناداه - وفوجئت بهما يرفعانى بسواعدهما القوية ويلقيان بى فوق الكرسى - المرسوم على قاعدته الفيل الجالس على كرسى - واستسلمت لهما حتى فعلا ذلك ، لكننى بمجرد أن لامست عجيزتى القاعدة الخشبية - المرسوم عليها الفيل الجالس على كرسى - حتى هببت قائما . . من البديع أن أستعين ببعض الشعر ، نعم ، الشعر ، هكذا فكرت ، ونفذت على الفور ، ورحت أنشد شعرا ، لكن يبدو أن هذه «الوصلة» لم تعجب رواد المقهى ذوو العيون الذابلة والذين ظلوا طوال «الوصلات» السابقة خير السامعين والساخرين والساخطين .

- اجلس ، ودع ليلتك هذه تمر على خير .

ويبدو أننى كنت أنتظر هذه النصيحة فجلست على الفور ، وأحضر لى «القهوجى» شايا لم أطلبه ، ولم أفكر فى شربه .

أحسست بكل شئ فى المقهى قبيحا ، العيون الناعسة والحزينة والتائهة

قبيحة ، الوجوه السوداء المتسخة قبيحة ، المقاعد ذات القاعدة الحصير أو الخشبية قبيحة ، الشاى قبيح . . أحسست بالرغبة فى القئ والجرى والانسلاخ ، رميت بقطع معدنية فوق «الصينية» وجريت إلى الباب ، فتحته وخرجت ، لطمتنى الريح .

من بعيد رأيت سيارة جميلة تطير ، لا شك أن محبين جميلين آخرين يقبعان فيها ، من الرائع أن أرى الأشياء الجميلة مرتين فى ليلة واحدة ، وقفت بمنتصف الطريق تماما أحملق بعينين جاحظتين فى ضوء السيارة الأمامى الأصفر (الجميل أيضا) ، لم أستطيع أن أرى الولد الجميل أو البنت الجميلة لأن الضوء الجميل كان قويا ونافذا وعميقا فى داخلى ، الضوء الأصفر يزداد جمالا كلما زاد اقترابه وانتشار مساحته فى عينى وداخلى (الريح تقترب) ، ذبت فى اللون الأصفر تماما ، وفجأة (ريح غادرة) اختفى اللون الأصفر ، واحتلت مكانه مساحات من ألوان أخرى مختلفة لكنها حادة فاقعة بدأت تبرق فى عينى وأنا أسمع صرير الإطارات ، وأحس بالضوء تقسم آلاما تلهب جسدى كله (الضوء جميل والريح طاغية) ، الأرض باردة (لكنها جميلة) ، شئ لزج الملمس ينسال على وجهى (الريح تضيع كل الأشياء) ، شئ كالنعاس يغزونى (لماذا أهرب ؟ لماذا يهربون؟) ، «العالم أسود» قالت لى عيناى ، (الريح ، الريح تسرق كل الأشياء ، سرقت من عينى الضوء الأصفر) .

يناير ١٩٧٤

أغنية سوكا الأخيرة

إلى يسرى بغدادى

* سلاما يا زمنا كانت فيه الحصى تزغرد لقدمينا للحصى الآن لون كئيب ، والشجر الأجرد يتـراوح بين الصمت وبين الموت ، تركت المدينة خلفى وقلت لا عـيش لى فيـها بعـد اليوم ، أنزف شوقا واشتعالا وأتخذ طريق المقابر إلى محطة القطار .

* منذ أيام حلمت بفـايدة ، كـانت تقف فى شـرفـة منزلهم مـرتيـدية ذلك القـمـيص الوردى الذى أحـبـه وأنا واقف خلف «البنك» وقد خـلا الدكان من الزبائن ، وكـانت تستند بذراعيـها المطويتين إلى حاجز الشـرفة بينما وسدت نهديها النافـزين ذراعيها الطريين ، فبدت الكرتان المرمريتان وكـأنهما يناديانى ، لم أستطع أن أرفع عينى عنهـما ، كان نداءهما سـاحرا ، وربما أدركت هى ذلك ، فقد عادت إلى الوراء وجذبت القميص إلى الأمام ، فبديا الآن حتى حـافتيهـما ، وعندما اسـتندت مرة أخرى إلى حـاجز الشرفـة ، كانت عيـناى قد بلغتـا أقصى اتساعـهمـا ، جحظا ، جحظا أكـثر ، وفجأة انفلتت مـقلتاى ، درجتـا فوق «البنك» ثم فوق أرض الحارة ، تسلقتا الجدار وحاجـز الشرفة حتى وصلتا إليها ، قبضت عليهما ، وأودعتهما ما بين نهديها . .

انتهى الحلم بعـد ذلك نهاية رائعة ولكن ، كـان على أن أقوم فى صباح يوم شديد البرودة بالاستحمام وغسل ملابسى الداخلية ،

فقد قـالت أمى منذ زمن أنها ليست على استعـداد لغسل ملابسى «المعكوكة» .

* قابلنى رجل عملاق الجسم ، يرتدى سروالا مزركشا وسترة مفتوحة تكشف عن غابة من شعر أسود ، قال : السلام ، قلت : السـلام ، قال : أنا الحاوى صـاحب الألعاب الـسحرية والحـيل العـجيـبـة ، قلت : وأنا المغنى صـاحب الموال الحـزين والقلب الشرس ، قـال : وما أخـبار المدينة ؟ قلت : «سـوكا» رحل عن البلـدة ، انفلت فى الظـلام ســرا ولم يقل لى ، هرب مـع ابنة «الباشكاتب» .

قال : وماذا أيضا ؟

قلت : وقفت أمام الضابط ، فقال لى «لا أحد غيرك يعرف ، فتكلم يا ابن القحـبة ، وقل لنا إلى أين رحل» . وعندما قلت له إن أمى ليست قحبة ، لطمنى .

قال العملاق : ولماذا ترحل الآن ؟

قلت : أيام كان «سـوكا» معى كنا ننظر فى وجـه الشمس بلا مـهابة . أرتدى الآن منظارا أسـود . . أرحل باحـثا عن جـرأتى القديمة .

قال : وأين تجدها ؟

قلت : حيث يكون «سوكا» تكون .

* لم يكن هناك مـن بقـايا للشـمس سـوى ضـوء باهت ، يستـريح عند عتبة البـاب ، ويمد بعضه إلى أقـدامنا ، كنا بجوار

السلم . قلت لهـا «تعالى نذاكر مع بعض» قـالت «فين ؟» قلت «عندنا فى الشقة» نظرت إلىّ فى عتـاب صامت ، كان جدى فى الدكان يستـعد لصلاة المغرب ، وكـانت أمى فى إحدى جوالات شـرائها ، وكـانت الشقـة خاليـة ، قالت «عـيب» . ارتبكت ، ولكنى كنت قد أعددت كل شئ ، فقد قـال لى سوكا «بوسها» . قلت «انتى مش بتحبينى . . هه . . مش بتحبينى ؟» قالت بدلال خفر «ما أنت عارف» قلت «تبقى مش واثقة فى» .

- . . بس عيب . . أمك تقول إيه ؟
- أمى مش قاعدة .
- ونقعد لوحدنا فى الشقة ؟

أخرجت من جـيبى زجاجة العطر التى اشـتريتها من سـرقاتى الصغيرة من الدكان ومن جدى ، أعطيتها لها دون أن أتكلم .

- مرسى قوى .
- فايدة ، أنا بأحبك قوى .

وضعت يدى فوق كتفهـا ، وبسرعة كانت تنزلق فوق صدرها ، فلامست كـتلة ذات لدونة غريبة ورائعة ، واعترانى شـعور أعرف آلان أنه إحسـاس بالبكارة ، شهقـت «لأ» ، تراجعت وهى تدفع ذراعى ، وبكت .

* قال العملاق : أمد لك يدى ، فـساعدنى ، أنت صاحب السحـر والأعاجـيب ، فأعـمل فنك وقل لى أين أجد «سـوكا» أعطيك ما يبقى من عمرى بعد أن أراه .

قال : ولماذا ترحل وحدك ؟

قلت : قلت لفـايدة «هل ترحلين معى ؟» فبكـت ، قلت لها «لماذا تبكين؟» فقـالت «لأنك راحل» . كنت أعرف عندمـا قررت الرحيل أن حبيبتى أجبن من أن تفعل ما فعلته ابنة الباشكاتب .

قال : وهل تحب «سوكا» أكثر ؟

قلت : بدون «سوكا» ، لا طعم لحب أو حـياة ، نشأنا نلعب فى طين واحد ، وتراب واحد ، نجـمع ألعابنا فى صندوق واحد ، نثب فى العربات معا . ونقرص أفخاد الفتيات معا ، نشرب التبغ خفيـة عن أهلينا ، ونهرب من المدرسة سويـا . فقط . . لو قال لى أنه راحل . . . كفى أيهـا الرجل الطيب ، ولا تثر فى الأمس ، وعجل بسحرك ، وقل لى كيف الطريق إلى سوكا ؟

قال : لك ما طلبت .

* قلت له : تعالى نخش جوة ، أنا عايزك ، أنا بقالى أوضة لوحدى ، مش تباركلى .

كانت قد مـرت شهور لم أره فيها . قـال قبلها أنه ذاهب إلى العاصـمة ليعـمل ، عاد أكثر وقـارا ، وبدا وجهه النحـيل جادا وصلبا وأن لم تـتركه تلك الابتـسامة الحـنون ، ترك لى ذراعه ، فأودعتـها ما بين ذراعى المثنية ، ودخلنا إلى حـجرتى ، وقبل أن يجلس جال بالحـجرة يتفحص مـحتوياتهـا القليلة ، وابتسم وهو يلحظ بعض الصور العارية التى امتـلأ بها الحائط ، وصور لاعبى الكرة الذين نشترك فى التعصب لهم «بفانلاتهم» الملونة .

- هاه . . ازى الحال ؟
- بصراحة . . تعبان يا سوكا يا خويا .
- من الحب . . كالعادة طبعا . . هه ؟
- أنا احترت خالص . . قال ايه . . بتحبنى . . ولما ألمسها . . عيب وعياط وهيصة . . وأنا مش . . .
قال ونظره ينزلق من فوق أحد الأفخاد المعلقة ويبتسم ساخرا :
- باقول لك ايه . . سمعت عن «أراجون» ؟
- ايه ؟
- أراجون . . لويس أراجون .
- لأ ، هو أنت سافرت ورجعت بترطن ، لأ يا مستر «سوكا» ما سمعتش عنه .
- لازم تسمع عنه . . عن جوركى . . عن . . .
- طيب ، طيب . . إيه دا كله . . حفظت الكلام دا كله منين ياد ؟
- أنا باتكلم جد . . لازم . . .
- يا جدع أنت . . أنا باشكيلك مشكلتى عشان تحلها لى . . تقوم ترطن لى . . أقولك «فايدة!» تقول لى «ديجول» .
- ما أن بحلها لك أهو .
ويومها سهرنا حتى الصباح ، وهو يتكلم . . وأنا أسمع .
* وضع العملاق يده فى جعبته ، وأخرجها تحوى فأرا ذا شعر أبيض وعينين براقتين صغيرتين ، بسط الرجل كفه فمضى الفأر يتقافز فوقها ويداعب أصابعها .

قال الرجل : هذا من فئـران الصحراء ، يقبع فى جـعبتى منذ أكثر من عام ، وهو يحبنى ولكن . . .

فجأة طوح الفأر بعيدا . مضت لحظة من الدهشة والانتظار .

قلت : لماذا ؟

لم يرد ، كـان ينظر إلى الأرض ويبـتسم ، كـان الفـأر هناك يسعى تحت قدميـه ، يتسلق بنطاله القديم ، ثم يستقـر عند فتحة جيب سترته المفتوحة . تناولـه فى كفه ثم ابتسم وقال : ها قد عاد ، ولكن . . .

رفع ذراعه وطوح بالفأر بعيد . . مضت لحظة عاد الفأر بعدها يتسلق بنطال الرجل ويستقر فى فتـحة جيب سترته . تناوله بكلتا كفيه ، وأعاده إلى جعبته وهو يقهقه .

وفى طريق عـودتى إلى الـبلدة ، أدركت أن هناك اخـضـرارا يشـوب بعض الشـجر ، وأن الحـصى ليـست داكنة تمامـاً ، وأن الضيـاء أسطع مما كنت أراه وأنا قادم ، خـيل إلى أن هناك شيـئا هائلا لابد قـد حـدث ، عندما تحـسـست وجـهى لم يكن هناك منظارى القاتم ، ابتـسمت وأنا أسمع صوت القطار البـعيد يعلن عن رحيله ، فقطعت الطريق حتى البيت وأنا أغنى أغنيته الأخيرة .

* أغنية أخيرة :

أمحو رسم الوردة من فوق سريرى ،
ألعب بالشمس ، وأقفز فى العربات
أهدى الحبيبة الجسارة
أدخن
وأغنى
أغنية أخيرة لسوكا .

نوفمبر ١٩٧٦

الكتاب الثانى

أحلام وسكاكين

الجزء الأول :

كفر حرب

أساطير منسية

يمكن للقادم من ناحية مخزن عربات الجاز - مخترقاً شارع الحسّانى - أن يرى «الحنفية» قبل أن يصل إلى تقاطع الشارع مع الشارع الرئيسى ، بل يمكنه - إذا ما أغفل النظر إلى الحفر الكثيرة الموحلة تحت أقدامه أو الحملقة فى وجوه العجائز والنسوة الجالسين على أبواب البيوت الواطئة - يمكنه أن يرى خط المياه الرفيع المنساب من فتحتها الواسعة على القاعدة الأسمنتية التى تحيط بها فوق أرض رصيف ضاعت معالمه .

كانت حنفية «ندى» هى الحنفية العمومية الوحيدة فى «كفر حرب» التى تحمل إسما خاصاً بها . والعارفون ببواطن الأمور «العقارية» يقدّمون تفسيرهم للإسم بأن الأرض التي تتربع على جزء منها الحنفية ، كانت فى زمن بعيد ملكاً لأمرأة تُدعى «ندى» لكن الكثيرين يسخرون من هذا التفسير مستعدين لتقديم حججهم فى أن «ندى» ذلك الإسم الارستقراطى لم يعرف طريقة إلى أسماء الناس فى هذه المدينة الصغيرة إلا عن طريق التليفزيون الذى لم يكمل إرساله العقد الثالث ، ويرجعون التسمية لما بين «الندى» والماء من علاقة لغوية و «أم خليل تمصمص بشفتيها إزدراءاً لكل ما يقال من خز عبلات الشباب وتحكى لأحفادها الحقيقة :

كان ياما ياسعد ياإكرام ، بنت جميلة ولا كل البنات ، تسكن نفس شارعنا «الحسّانى» ، وكانت البنت «ندى» تحب شاباً ولا كل الشباب ، تقول له : «أحلم بنا تحت سقف واحد ويقول : «أبنيه بيدى هاتين طوبة طوبة ، ولكن للأرض ثمن وللطوب ثمن ، والأيدى قصيرة ، وأنت تعرفين البئر وغطاه» .

تقول : «إلى متى ؟ ويصمت .

جاءها يوماً وفي وجهه فرحة : «ندى يا حبيبتى ، فُرِجتَ ، اليد القصيرة ستطول ، وستمتلئ بالنقود والذهب ، وَقَّعتُ اليوم عقد العمل ، وبعد أسبوع سأسافر إلى بلاد فيها الفلوس أكوام على أكوام ، وأجرة «النقاش» هناك عالية ، قاطعته ملتاعة : «تسافر ، وتتركنى» ، ضحك : «أتركك ؟ ولماذا أسافر إذن ؟ سآتيك بأكوام الفلوس لنبنى بيتنا ، ما رأيك فى هذه الأرض التى نقف عليها الآن ؟ ما رأيك ؟ هه ؟ سأبنى لك البيت هنا ، فى نفس هذا المكان» . وسافر الفتى ، وانتظرت البنت شهوراً ، سنة ، سنتين ، ثلاثة ! وفى عصر كل يوم كانت تمر بقطعة الأرض الفضاء : أرضهما ، تتنهد وتتخيل : بيتاً صغيراً ككل بيوت «كفر حرب» الواطئة ، يكفى أن يجمعهما وأن ينطلق من بابه أطفالهما يعبثون بطين الكفر وترابه ويعودون فى المساء ليتلقوا العقاب والحنان من يديه القويتين .

فى يوم من أيام الصيف الثالث عاد الغائب ، سمعت أباها يحكى لأمها عن الحقائب الضخمة الممتلئة التى اعتلت ظهر «البيجو» الذى سد الحارة ، وأن الولد قد أصبح «نظيفا» نظافة لم يتعودها أهل كفر حرب وكثّرَ الله خيره ، لم ينسانا ، أهدانى طاقية مزركشة «تخيلت البنت فساتينها الحمراء والصفراء التى وعدها بها الفتى والتى لا شك أنها تملأ نصف الحقائب الضخمة .

وانتظرت البنت يوماً ، يومين ، ثلاثة . كلما طرق الباب تخيلته والجأ يحمل كومة من أكوام الفلوس ويلقيها بين يدى والدها «هاك ، مهر الغالية» ، ولم يأت ، فى اليوم الرابع حكى أبوها أن الفتى قد طلب منه أن يبحث له عن شقة خالية فى «حى الأفراح» . حيث يعمل أبوها فى مقهى هناك - لأنه ينوى الزواج .

بعد أسبوع رآته فى الشارع ، بدا أكثر طولاً وأمتلأ جسمه المحشور فى بنطاله «الجينز» وقميصه الحريرى ، هتف وهو يمد لها يداً أمتلأت أصابعها بالخواتم الذهبية الضخمة «أهلا يا ندى كيف حالك؟» كانت رغبتها فى أن تضمه عنيفة ، لكن شيئاً ما فى وجهه العابث قد منعها حتى من مجرد الرد ، واكتفت بالبحث بعينيها عن عينيه لتجد الإجابة عن سؤال لم يخرجه فمها «لماذا لم تأت ؟ «لكنها لم تستطيع أن تجد عينيه ، وبابتسامة وادعة سأل : «ندى ، ألم تتزوجى بعد ؟ «قالها بنزق . ، وفهمت ، جرجرت أقدامها ، وهناك فى أرضهما الفضاء ، حيث سيكون بيت لن

تسكن فيه ولن يضمها مع حبيبها العائد ، جلست على حجر ، وظلت تبكى ، من مغيب الشمس وهى تبكى ودموعها تنسال خيوطاً رفيعة على وجهها ساقطة على أرضهما - الحلم .

فى الصباح لم يجدوها هناك ، ووجدوا فى نفس مكان الحجر الذى كانت تجلس عليه : الحنفية ، حنفية ندى ، والماء ينسال منها خيوطاً رفيعة ساقطاً على الأرض .

على مناضد قسمي الشرطة في كل من حي الأفراح وحي الورود تتراكم الأوراق الكثيرة التي تحوى بلاغات عديدة عن حوادث السطو على البيوت والمحال في الحيين الراقيين ، في الوقت الذي لم تسجل فيه دفاتر شرطة «كفر حرب» منذ زمن بعيد حادثة واحدة من هذا النوع ، رغم أن المسافة بين الكفر وذلكما الحيين لا تزيد عن نصف الكيلو متر .

قد يهز البعض أكتافهم ويبتسمون بسخرية العارفين «هل يوجد في كفر حرب بيت واحد يستاهل السرقة ؟ تلك البيوت الواطئة بما تحويه من رث الأثاث وقديم الأواني ، لماذا يفكر لص ، أي لص في أن يملأ قدميه بطين شوارع الكفر من أجل أن يدخل واحداً منها ؟ »ولكن هؤلاء ينسون أو يجهلون أن كثيرين من أهالي الكفر من عمال البناء وأهل الحرف - في ذلك الزمن القديم - قد جلبوا من بلاد النفط التي عملوا فيها سنيناً ما يسيل له لعاب اللصوص هذه الأيام من تليفزيونات ملونة ومسجلات وخلاطات مازال بعضها صالحاً للعمل .

فإذا ما سُئل أهالي الأحياء الأخرى يمكن لأحدهم أن يقول بحكمة : «البغّي لا تمارس البغاء في حيها ، واللص لا يسرق

جيرانـه» ، أما ظرفاء الكفر فـيقولون أن السبب ببـساطة أن أهل الكفـر ينامون نصف نوم ، إمـا بسـبب البراغـيث التى ترعى فى فراشـهم أو بسبب «المعـسّل» الذى قطع أنفاسـهم ووهبهم نعـمة «السعال» طوال الليل موهمين اللصـوص - عن غير قصد - أنهم متيقظون .

عم «عطا» يزعم أنه منذ حادثة «تاتا» لم يجسر لص على دخول الكفر ، كيف يدخله وكلاب الحراسة تملأ الشوارع فى الليل ؟

ويقولون «ياعم عطا» ، صائد الكلاب لم يتـرك كلباً فى الشارع ، فأين هى كلابك هذه ؟ «يقول» : «موجودة ، لكنكم لا ترونها» .

فى يوم مـا قـرأ شبـاب الكفـر المتـعلمـون فى جـريدة المدينة الأسبوعـية فى باب «جريدتنا منذ سنين» ما جـعلهم يعرعون إلى عم عطا مـعتذرين له راجـين أن يحكى لهم حكاية «تاتا» هذه ، وقرأوا له ما كتبته الجريدة :

«حرص كاتبنا الكبير الأستاذ «موسى على» دائماً على متابعة ما يحدث فى مدينتنا الصغيرة بقلمه الجرئ ، وهاك ما كتبه منذ سنين فى العمود الذى ظـل يكتبه لقرون عديدة : إنهـم الحاقدون الذين يدمـرون كل جمـيل تقع عـيونهم علـيه ، إنهم المخـربون الذين يهـدفون إلى تقـويض دعائم الـسلام فى مـجتـمنا الآمن ، وإنى لأتساءل : هل لاسم ذلـك المكان الذى ارتكبت فيـه تلك الجريمة البشـعة - كفـر حرب - تأثيـر على سكانه ؟ ولكنى أزعم أن لا ،

فالذين فعلوا ما فعلوه قلة ، شرذمة من العابثين - أهل كفر حرب الطيبون المسالمون منهم براء - إنهم مرضى بالحقد الأعمى الذى صور لهم أن ما فعلوه بالبريئة «تاتا» هو الانتقام الواجب لضياعهم وفشلهم فى الحياة . ستبقى «تاتا» دائماً رمزاً لضحايا العنف العابث والحقد المدمر . فلنبك «تاتا» ولكن علينا أولا أن نقضى على كارهى الحياة لتبقى الحياة» .

* * *

«تعرفون معرض الموبيليات الصغير على ناصية شارع الديرى - معرض البركة - فى ذلك الزمان لم يكن سوى بيت صغير كبيتنا هذا ، إلى أن جاء الحاج «عبد الغنى» فاشترى البيت وهدمه وأقام على أرضه مشروعه ، قالوا أن شركة كبيرة يظهر أصحابها فى شاشات التليفزيون مع المسئولين الكبار وهم يبتسمون ويمشطون لحاهم بأصابعهم - قد اختاروه ليكون وكيلاً لهم يبيع منتجات شركتهم فى مدينتنا هذه . ولا يعرف أحد لماذا اختار حينًا مكاناً لمشروعه . المهم أن الرجل - بعد أن ظل شهرين كاملين يتابع العمال وهو يمشط لحيته بأصابعه - اكتمل البناء وجُهز ، قرر الحاج أن يدعو وجوه المدينة وكبارها من مسئولين وتجار لأفتتاح مشروعه ليمنحوه «البركة» ويضعوها إسماً له ، وقد بلغت به أريحيته يومها أن يسمح لنساء سافرات بحضور الاحتفال .

كـان المسـئول الأول آخـر من وصل من المدعـوين ، وقـفت سيارته الـفارهة على الطريق الرئيسى الذى مازال أسـفلته طرياً ، وتقدم الحـاج «عبد الغنى» بنفـسه ليفـتح باب السيارة ، غـير أن عشـرات من الحلل الفـاخرة كانـت قد سبـقتـه إلى هناك . نزل المسئول مـاداً يده إلى الأيادى الكثيرة التى كانت فى استـقباله ثم تحرك جمع الرجال فى اتجـاه المبنى الغارق فى الأضواء والأصوات وباقات الورود ، ليـفسحوا المجال لتـقدم بعض الفساتـين اللامعة إلى باب السيـارة المفتوح مـستقبـلين زوجة المسئول التـى سبقتـها ابتسامـتها إلى الباب ، وقـدمت يديها وخديها إلى جـمع النسوة ينهشنهم ترحاباً وحـباً ، أشارت السيدة إلى السائق فـهرع إليها ، وبعد أن أومـأت برأسها إلى ناحـية السيـارة أدخل السائق نصف جسده الأعلى فى السيارة وأخرجه بعد برهة حاملاً بين يديه «تاتا» ووضعها فى أحضان السـيدة التى نظرت إليها بحنان ، ثم رفعت رأسهـا لتلحظ بنصف عينها نظرات الأعـجاب والحسد فى عـيون النسوة المحتـشدات حولها . كانت «تاتـا» آية فى الجمال بين إناث جنسها ، شـعر ناعم أبيض ، يتجمع فى خـصلات طويلة ليغطى كل جســمها إلى مـا فوق عينيهـا الصغيـرتين الوادعتين ، ورأس رشيق وحركـة دائبة طرية إقتربتْ من زوجة المسـئول سيدة طويلة القامة - يبدو أنها من المقربات إليها لأنها أسرت فى أذنها شيئاً ، ويبدو أنها نصـحتها بأن تترك «تاتا» فى السيـارة ، لأن البعض قد سمع السيـدة تقول بصوت خافت حاد «أتركـها ؟ أبداً» . تحركت

وتحرك معهـا الجمع ناحية البوابة الحديدية ، وقـبل أن بصلن إليها تقدم الحاج عـبد الغنى إليهن مرحـباً غاضاً لبصـره ، وإن استرق نظرة كانت كافيـة ليرتسم على وجهه الوقور هلع كـبير ، توقفت السيـدة وقد اتسـعت عيناها تسـاؤلاً ، لكن السيـدة الطويلة التى فهمت الموقف بسرعت هرعت إليها وهمست «أنها تاتا ، ألم أقل لك ؟ «قال الحـاج وهو يحاول أن يخـفى غضبـه» عفـواً يا أختنا المكرمة ، لا تدخل البركة مكاناً تـدخله الكلاب ، لو سمحتى لنا بأن نريحك من حملك قلـيلاً ، وأشار إلى صبى أسـمر اللون - يبدو أنه من عمـاله - وبعد أن أومأ إليه الحاج نـاحية «تاتا» تلقف من يدى السيدة كلبتها الرقيقـة ، وأودعها ما بين ذراعيه النحيلتين ، ومضى إلـى ركن بجوار البـاب . حدث كل هذا بسـرعة ، وفى غـمـرة الضـوضاء والـهرج الذى كـان يعم المـكان لم يلحظ إلا القليلون ما حدث .

ما جرى بعد ذلك ، لا يعرف أحد على وجه اليقين كيف جرى ، الذى يعرفـه الكثيرون أن الحـاج عبد الـغنى بعد شهـر واحد من افتتاحه لمشروعه فقد ألغاه وأقفل مكانه ووهبه لابن من أبنائه الذى باعه بثمن كـبير لتاجر الأثاث الذى فـضل أن يحتفظ باسم المكان وفـعل أحفـاده إلى يومنا هذا . . ويبدو أن الحـاج قد تشـاءم من المكان وسكانه فحول نشاطه إلى «حى الورود» ، لكن الذى عرفه سكان الكفر أنه فى ليلة الافتتاح الزاهرة إختفت «تاتا» ، فبعد أن

طاف المدعـوون والمدعوات بالمكان وشـربوا كاسـات العصـير من إنتاج الشركة الكبـرى وباركوا المكان باسم هدايا الحاج وأياديه قبل الافتتاح وأثنائه ، وما بين الابتـسامات وكلمات الوداع إتجهوا إلى سيـاراتهم المنتظرة على الشارع فى طابور طويل - وقفت السـيدة على الباب قليـلاً علّ الصبى يهرع إليهـا بكلبتها المحـبوبة ، ولّما أحست أنه تأخـر قليلاً رمت بنظراتها إلى حـيث كان يقف ، لم تجده هنـاك ، جالت ببصـرها فى أنحـاء المكان ، وغاص قلبـها عندما لمحته بيـدين خاليتين ، زائغ النظرات يتلفت هنا وهناك بين الأرجل المتزاحمة .

وأمام الضابط إعـترف الصبى - الذى أتهم صراحـة باختطاف «تاتا» أنه قد سـمح للكلبة الصغـيرة أن تترك يديه لتـتمتع بالقـفز على المناضد والكراسى القريبة مـن المدخل ، لأنها كانت تتململ بل وعوت بصوتها الرقيق دلالة على ضجـرها وهى حبيسة أحضانه ، لكنه أقسم أنه حاول أقـصى ما يستطيع أن يكون قريبـاً منها لكيلا تغـيب عن ناظريه ، لكنه بعـد اللحظة التى تقـدم فيـها ليـحظى بكوب من أكواب العـصير الموضوعـة على «صينية قريبـة» إلتفت ناحيتها ، لكنـها لم تكن هناك ، بحث فى كل شبر فى المكان بل وفى الشارع ، ولكن «تاتا» العزيزة كانت قد اختفت تماماً .

إنتشر المخبرون ورجال الحاج عبد الغنى فى أنحاء الكفر ، فقد حّملت السيـدة الحاج المسئولية الكـاملة لضياع ، محبـوبتها «تاتا»

بتصرفه العجيب فى ليلة افتتاحه المشئومة ، وأقسم الحاج بالأيمان المغلظة أنه لن يبقى فى الكفر يوماً واحداً إذا لم ترجع تاتا لصاحبتها . وانطلق رجاله يبينون لأهل الكفر أن ذلك معناه أن يغلق الحاج مشروعه وتضيع على بعض أهل الكفر فرص العمل التى يوفرها وجوده - وهو الذى يدفع رواتب عماله بالعملات الأجنبية الصعبة - وعليه ، فإن على خاطف تاتا - إذا كان يراعى مصلحة أهله - أن يعيدها ، لكن دعايتهم لم تسفر عن ظهور المختفية ، ويقال أن البعض قد تعرض للتهديد بأساليب مختلفة ، ولما لم يفلح كل هذا أعلنت السيدة عن مكافأة لمن يدل على مكان تاتا أو يدلى بمعلومات تفيد فى العثور عليها .

فى منتصف الليلة السابعة ، اتصل المخبر «سعد عبد البصير» بالضابط النوبتجى مبلغاً إياه أنه فى أثناء تجواله الليلى المعتاد فى أنحاء الكفر وجد أمام البوابة الحديدية لمعرض البركة - الكلبة تاتا جثة هامدة .

* * *

يقولون يا أولادى ، وصدقوا أو لا تصدقوا أنه فى هذه الليلة وقبل منتصف الليل بقليل ، بعد أن استغرق أهل الكفر فى نومهم بساعات كان مجموعة من شباب الكفر عائدين إلى بيوتهم من أحد احتفالات الزفاف ، محاولين أن يتزنوا فى مشيتهم بغير ضوضاء ، بعد أن أدرات البيرة - التى لا تتوفر لهم الفرصة إلا

نادراً ليعبوا منها - رؤوسهم الغلـيظة . بالقرب من معرض البركة لمحـوها هناك ، وفي وقت واحـد هتـفـوا «الكـلبـة» ، لم يفكر أحـدهم لحظة واحـدة فى المكافـأة المرصودة ولا فى التـهـديدات اليومية التى ملتهـا أسماعهم ، كانت تتهادى هناك ميـادة متباهية رقيقة مثيرة ، وكـأنما اجتمعت رؤوسهم فى رأس واحد ، تبادلوا النظرات ، ثم تحركوا فى اتجـاه واحد ، أحاطوا بالكلبة الصـغيرة حتى لم يبق لها إلا أن تتراجع إلى بوابة المعرض الحديدية . . كان الذعر يبـرز من عينيـها الصـغيرتين وهى تزمـجر بصـوت كالمواء متـراجعـة إلى حيث لا تدرى ، إلى أن التـصقت بالبـوابة وهى ترتعش ، لم يبق بينهم وبينها سوى خطوات قليلة ، وقد تركزت عيـونهم عليها ، وفجـأة ، انقضـوا جميعـاً فى لحظة واحدة ، وتحول الفتيان السمر العريضـو الأكتاف إلى مجموعة من الكلاب الضخمة حادى الأنياب منتصبى الذكورة .

أنت الآن على مشارف «كفر حرب» ، صدّق ، لعلك تظن أنك على أهبة الدخول إلى أكثر أحياء المدينة رقياً إذا ما اصطدمت عيناك بالمبنى الضخم بواجهته الفخمة ومدخله الرخامى ، لا تنخدع ، فإنك إذ مامضيت فى طريقك فلسوف ترى البيوت الواطئة المتواضعة خلفها ، قد يدهشك أن تلحظ - إذا ما دققت النظر قليلاً - أن المبنى الكبير غير مأهول بالسكان رغم ما يبدو عليه من قدم الطراز ، وإذا كنت فضولياً وأردت أن تعرف السبب فخير ما تفعله أن تتجه رأساً إلى المقهى المقابل له حيث تحتسى مشروباً أحمر يشبه الشاى إلى حد ما - بينما يحكى لك «رجب» وربما «بيومى» - إن كان موجوداً - حكاية «عمارة البيه» .

* * *

فى نفس الموعد - لا يخلف يوماً - يأتى ، وعلى ذات الكرسى يقعد ، وبعد دقائق يكون قد رشف من فنجان قهوته «السادة» رشفتين ، يزيح «الصينية» بأكوابها جانباً ويخرج من جيبه علبة خشبية صغيرة ، يأخذ منها قطعاً معدنية لامعة عليها نقوش ورسومات ويرصها على الطاولة أمامه ، يرنو بعينيه إلى المبنى الهائل الضخامة الذى يجثم قدام المقهى ، يلملم الأوسمة اللامعة

ويضعها بعناية شديدة فى علبته ، يقفلها ويضعها فى جيبه ، وهو يمصمص بشفتيه يتمتم «رحمك الله يا جدى» . قد يسأل رجب : ألم يأت بيومى ؟

فيجيبه رجب دائماً : على وشك الوصول .

فإذا ما جاء بيومى يهرع إليه ويقبض بيده السمراء النحيفة على اليد البضة البيضاء .

- شاى يا رجب ، ما الأخبار يا بيومى ؟

- ليس هناك جديد يابيه ، أنت تعرف سعادتك أننى أبحث عن مشترين غرباء عن البلدة لم يسمعوا القيل والقال ، العمارة شكلها مغرى لكل من يبغى الشراء ولكن أنت تعرف سعادتك .

يلقى بنظراته إلى المبنى الضخم ويتنهد «رحم الله جدى» .

- على العموم أنا أعتمد عليك ، إبذل مزيداً من الجهد يا بيومى وعمولتك كما اتفقنا ، عشرون فى المائة ، همتك يا بيومى .

يزعق على رجب : هل كنسوا السلالم ومسحوا البلاط يا رجب ؟

يدس فى يد رجب بعض أوراق النقد ، يحيى ويمضى إلى سيارته الواقفة أمام باب العمارة الكبيرة .

يحدث هذ كل يوم ، حتى الكلمات أبداً لا تتغير ، ويزعم بيومى أن هذا كان يحدث كل يوم مع البيه الأب ، بل ويشتط فى زعمه أن والده هو قد حكى له أن هذا ما كان يحدث مع سعادة البيه الجد وبنفس الطريقة .

يعرف سكان المدينة ، لاسكان الكفر وحدهم حكاية عمارة «البيه» ويعرفون أنها معروضة للبيع بأقل من نصف تكلفتها منذ عشرات السنين ولا من مشترى ، ومن يشترى عمارة ينسال من صنابيرها إذا فتحتها بدلاً من الماء دم ، نعم ، تلك حقيقة يؤكدها الكثيرون ولا يستطيع حتى بيومى السمسار أن ينفيها لزبائنه المشترين إذا ما واجهونه بها .

يقولون : العمارة مسكونة بالعفاريت الذين لا يحبون أن يشاركهم فى مسكنهم أحد ، فلجأوا إلى هذه الحيلة ليفزعوا كل من يفكر فى السكن ، بل ويقولون : اتفق العفاريت والبيه الجد أن يترك لهم المبنى لقاء مبلغ كبير من المال يجده تحت وسادته أول كل شهر وأن البيه الأب والبيه الحالى ظلا يحصلان على إيجار المبنى من العفاريت بنفس الطريقة فيرد عليهم : كيف يعرض البيه مبناه للبيع وهو مؤجر ، ولمن ؟ للعفاريت ، هل يجسر أحد أن يقف فى وجه العفاريت ؟ يقول بعض العقلاء : أن ما ينسال من الصنابير ليس دماً . وإنما هو ماء مختلط بصدأ المواسير الحديدية ، فيقول جمعة : لقد اشتركت بنفسى مع عمال المقاول الذين غيروا

جميع مواسير المياه فى المبنى أكثر من مرة وبلا جدوى ، فقد ظل الدم - دم حقيقى - ينسال من الصنابير . وبين أوراق البيه القديمة والحديثة أكثر من تقرير معملى يؤكد أن السائل المأخوذ من صنابير المياه فى المبنى عبارة عن دم ، دم بشرى .

* * *

عن رجب عن أبى رجب عن جد رجب أنه حكى :

منذ سنين بعيدة ورث البيه الجد عن أبيه قطعة أرض واسعة تقع فى زمام كفرنا ، نصحه بعض «البهوات» أن يبيعها ويشترى بدلاً منها قطعة أرض فى أحد الأحياء الجديدة الراقية فى المدينة ، لأن إقامته فى مثل هذا الكفر لا تتلاءم مع مركزه كضابط كبير فى الجيش ، ولكن لما كانت الأرض فى كفرنا - فى ذلك الوقت - تكاد تكون بلا ثمن ، ولما أوهمه بعضهم أن هناك خطة لهدم بيوت الكفر الطينية وإقامة مساكن حديثة مكنها وأنه لن يمر وقت طويل ليصبح الكفر أرقى أحياء المدينة - لذا قرر «البيه» أن يبدأ البناء على أرضه .

منذ اليوم الأول أصبح المكان وحدة عسكرية صغيرة ، فى الصباح الباكر تقف إحدى سيارات النقل العسكرية الضخمة محملة بالجنود ومعدات البناء بجوار المقهى المواجه لقطعة الأرض تفرغ حمولتها وتمضى لتعود بعد قليل محملة بمواد البناء فى الظهيرة يتوقف الجنود عن العمل لتناول الغذاء عندما يلمحون

عربة النقل قادمة تحمل لهم «التعين» ، يحتسون الشاى فى المقهى ، ثم يعودون للعمل . ساعتها يكون البيه قد وصل ، يتفقد سير العمل ، يربت على كتف هذا ويزعق فى ذاك ، ثم يمضى إلى المقهى ، يرقبهم فى جلسته وهو يشرب قهوته السادة ، وقد يزعق فى أحدهم من مكانه شاتماً إذا ما لمح منه تقاعساً أو إهمالاً . . عند الغروب تحملهم عربة النقل عدا إثنين منهم ليقوما بالحراسة .

إستمر العمل في العمارة الضخمة شهوراً طويلة إلى أن اكتملت زينة للناظرين ، وقبل أن يتخذ البيه قراره : هل يؤجر أم يبيع شققه تمليكاً حدث ما أجل اتخاذه للقرار ، أعلنت حالة الطوارئ فى الجيش ، وبدأت الحرب .

* * *

فى الصحراء بان المستور ، وانكشف الجبان والمغرور ، وحصدت طائرات العدو - المرسوم عليها ذبابة بأجنحة ستة - برصاصها وقنابلها فلول الجند المتراجعين يجرون أحذيتهم الثقيلة فوق رمال وصخور . بين مرتفعين وقف البيه بين جنوده وضباطه لصغار يعطيهم تعليماته الأخيرة ، بينما صوت أحدهم فى العربة «...يب» الواقفة فى الجوار يحثه على الإسراع ، كان الكثيرون مستلقين هنا وهناك يئنون وبعضهم يحاول أن يضمد جراحه بقطع من سترته أو بنطاله ، وبينما يرفع البيه يده لهم قائلاً «الشدة يا رجال ، سوف أترك . . .» سمع ما يشبه العواء لو سمحت

سيادتك ، خذنى معك سـيادتك ، كان عطوة ينزف منذ ساعات ولم تفلح ضماداته البدائية فى وقف سيل الدم على حبات الرمال تحته .

أشار البـيه لأحـد ضباطه الصـغار : «إعتن به يا وجـيه ، مع السلامة يا رجـال ، العزم والشدة يا أبطال» . سمـعه وهو يركب الجيب يصـرخ : إنى أموت سيـادتك ، خذنى معك سـيادتك ، لكن الجـيب كـانت تنهب الرمـال بعـيـداً عن عطوة ، والدمـاء وطائرات ترش الموت . . كان دم عطوة مـا زال نازفاً ، سال الدم ، جرى ، جرى ليلحق بالجيب الجنونيـة السرعة والتى مضت تنهب الرمل ثم الأسفلت ، ومـا زال دم عطوة يلهث وراءها ، لم يكن هناك خشية من أن يتوه الدم ، فـهو يعرف إلى أين تمضى السيارة فى النهـاية ، وصلت السيـارة هناك وأنزلت البـيه ثم مـضت فى طريقها .كـان الدم يتسلق مواسير الميـاه إلى فوق ، وعندما خلع البيه ملابسه ، ومضى إلى الحمـام لينفض عن جسده وعثاء حرب لم يخضها ، عالج صنبور الدش ، فغطاه شلال من الدم .

١٩٨٧

الجزء الثانى :

بيوت وشوارع

حكاية الصبى شعبان

تعالوا ، سأحكى لكم حكاية الصبى الذى قتل أخاه من أجل . . . يا ولد إعط الأستاذ طلبه وفتح عينيك جيداً ، أنا هنا مع الأفندية ، لأحكى لهم حكاية طريفة ، تعالوا ، عندى فسحة من الوقت ، هل نجلس هنا أم نذهب إلى البيت ؟ إنه قريب ، هنا أقدم لكم المرطبات من دكانى ، وفى البيت يمكن أن نشرب القهوة بحب الهان الذى جلبته من الأراضى الطاهرة عندما حججت آخر حجة ، وسأجلسكم فى الصالون المذهب ، ولسوف تفرجكم «الحاجة» على كل ما فى الخزانات من تحف وبدائع جلبتها أيضاً من الأراضى الطاهرة فى زياراتها وعمراتها ، أما أنا فسأفرجكم على ساعة الحائط البديعة التى هى أغلى ما أملك ، دفعت فيها ثمناً كبيراً لذا لا أعلقها على حائط أو أضعها على المكتب ، إنها فى الدولاب ملفوفة بالجوخ الفاخر ، أنا لا أحب المباهاة بما أملك ، ربما كانت «الحاجة» كذلك ، دائما : عندى وعندى ، ولكنها طيبة ، يقولون إن كل من كانوا فى مثل وزنها وهى تملأ السرير إذا رقدت - دائما طيبون ، أنت ، أيها النحيف ، لا تغمز بعينيك ، أنا لست سكراناً ، تعرفون : أنا لا أشرب الخمر قط ، استغفر الله ، إذا كنت أشرب البيرة فى بعض الأحيان - وأقسم على هذا برحمة أخى - فإنى أشربها دواءاً ، لعن الله داء الكلى ، ماعلينا ،

تعالوا نجلس هنا ، حصيرة الصيف واسعة ، هنا على الرصيف ناخذ راحتنا ، لا تخافوا ، لن يتهمونا بالتجمهر ، أنا هنا أمام دكانى ، كما أن الجماعة كلهم أحبتنا ، وتعرفون : من يأكل جبنتى القديمة وزيتونى - وخاصة عندما تكون بأبخس الأسعار - لا يمكن أن يؤذينى أو يؤذى ضيوفى ، لقد أطلت عليكم ولما أبدأ حكايتى ، نعم ، هى حكاية طريفة ، حكاية الصبى الذى قتل أخاه من أجل ساعة ، لا تظنوا أننى سمعتها ، بل عشت أحداثها بنفسى عندما كنت صبياً ، هيه ، ليت الشباب ، كانت أيام فقر ولكن كلها بركة ، من يذكر الرغيف عندما كان بنصف قرش ، طيب ، بالأمس جاءتنى بنت صغيرة وأعطتنى عشرة قروش ، وقالت اعطنى خمسة أرغفة ، وأنتم تعرفون أننى أقاسى الأمرين لكى أحضر الخبز من الفرن رغم إنى لا أكسب منه شيئاً ، ولكن من أجل عيون زبائنى أقاسى ، المهم قلت لها ، يا ابنتى ارتفع ثمن الخبز اليوم وقروشك لا تكفى سوى الرغيفين ، وقفت البنت حائرة وفجأة انفجرت فى بكاء حاد ومضت تصرخ «إذا عدت بدون خبز ضربتنى أمى وإذا عدت لها برغيفين ضربتنى أيضا،» أتدرون ما فعلت ؟ أعطيتها الأرغفة الخمسة ولم آخذ منها مليماً ، أى والله يقولون التاجر الشاطر لا يفعلها ولكن التاجر أيضاً له قلب ، يا ولد يا ابن الكلب أطفى الراديو ، هلى تدرى بكم صار كيلو الكهرباء ؟ نعم يا أفندية إلي أين وصلنا فى حكايتنا ؟ آه ،

كنت أقول إننى عشت أحداث هذه الحكاية بنفسى وشهدها معى المرحوم أخى رحمه الله ، نعم ، أدعو له بالرحمة ودخول الجنة رغم أنى ذقت على يديه الأمرين ، كبار السن منكم يذكرون كم كان غنياً ورغم ذلك لم نكن نذق اللحم أنا وأمى إلا فى المواسم ، كنت أعمل عنده فى هذا المحل نفسه الذى تجلسون أمامه - كالحمار - مقابل قروش قليلة يلقيها لى ، واليوم الوحيد الذى طلبت منه شيئا كان يوم جاءه ذلك الرجل العجوز بساعة الحائط سداداً لديونه ، أعجبتنى الساعة : الزخارف الخشبية حول زجاجها ، وبندولها الذهبى الشديد اللمعان رغم قدمه ورناتها الرخيمة ، وقفت مشدوداً إليها وأخى - يرحمه الله - يقلبها بين يديه ، وفى اليوم التالى استجمعت شجاعتى وقلت له : أعطينيها وأخصم ثمنها من مرتبى ، ضحك ساخراً وقال : مرتبك ؟ وماذا ستفعل بها ؟ تعلقها على مؤخرتك ؟ ومضى يقهقه وهو يتفرس فى وجهى الذى لابد أنه أحمر ساعتها ، كثيرون يقولون أنه استحق الميتة التى ماتها ، ولكنه رغم كل شىء أخى ، ولو عرفت قاتله الآن - وبعد كل هذه السنوات الطوال - لأكلته بأسنانى ، فهو فى النهاية أخى ، رحمه الله ، قلت أننى عشت أحداث هذه الحكاية بنفسى ، وإلا ما كانت صدقتها إذا ما سمعتها من آخر ، وقد لا تصدقونها أنتم أيضاً ، ولكنكم تعرفون عنى صدقى ، ليس صحيحاً أن كل التجار كذابون ، طيب ، بالأمس جاءنى مصطفى بيه وسألنى هلى تتعامل فى البضاعة المهربة ؟ لو قلت له

لا - لصدقني ، ولكني قلت له الحقيقة : نعم ، وسألني : ممن تشتريها ؟ قلت من فلان ، خسىء من يقول أنني أعمل معهم مرشداً ، فأنا لا أقول ما أقوله لهم إلا لأنني لا أعرف الكذب ، وقد شرحت لمصطفى بيه أن فلاناً يعول أيتاماً فلا داعى لقطع عيشه ، كما أن الكثيرين يأكلون عيشهم من بضاعة المنطقة الحرة المهربة . . التاجر هناك يأخذ رزقه ، ومفتش الجمرك ، وعسكرى البوابة ، والتاجر الذى يسرح الصبيان بالبضاعة ، والصبيان ونحن التجار الذين نبيع البضاعة - كل واحد برزقه - وهكذا تنتعش البلد ويحدث الرواج ، وافقنى مصطفى بيه وقال : صدقت يا حاج شعبان ، يا ولد ، لماذا تطفى الأنوار ؟ ياه ، صحيح ، الساعة الآن الواحدة ، لابد أن «الحاجة» مشغولة البال لتأخرى الآن ، لا تؤاخذونى يا سادة ، هل شربتم شيئاً ؟ غداً إن شاء الله تشربون المرطبات بينما أحكى لكم حكاية الصبى شعبان ، تصبحون على خير .

١٩٩٠

(٨٨) : بيت وشارع

البيت :

أنا لا أحب السبانخ ، أظن أنها القضية الأساسية التى دار النقاش حولها ، قلت لهم «لا أحب السبانخ ، وهى تصر على طبخها يومين فى الأسبوع ، وترغم الأولاد على أكلها ، بل وتحشو لهم شطائرهم بها وتدسها فى حقائبهم المدرسية ، معلنة فى روحها وغدوها أن قيمتها الغذائية لا توجد فى غذاء آخر ، اللعنة على القيمة الغذائية وعليها ، «وقلت لهم» أنا أحب القراءة ، وهى تفضل التلفزيون ، أحب الموسيقى الهادئة والضوء الخافت ، وهى لا تسمع إلا أغانى الأفراح ولا ترى إلا فى ضوء المصابيح المبهرة ، كيف يمكن أن نعيش تحت سقف واحدً ، قالوا : «بعد هذه السنين الطويلة والأولاد تأتى لتقول هذا يا أستاذ ؟ وقالت «يتجنى علىّ ، أطبخ له كل يوم صنفاً مختلفاً ، وأنا أحب السبانخ ، والأولاد يحبونها ، لم أر أحداً فى حياتى يكره السبانخ ، ثم أن قيمتها الغذائية عالية ، وأنا ككل زوجة تريد زوجها - وبصراحة - قوياً ، وقالت «أنا لا أحب القراءة ، عانيت منها الكثير حتى حصلت على الشهادة ، وبماذا أفادتنى ؟ وأنا أدعة يقرأ ، لم أطلب منه أن يتفرج على التلفزيون معى ، منذ يومين فرحت لأنه

جاء وجلس بجانبى ليتفرج ، ولكنه ما أن جلس حتى قال : ألم تشاهدى هذا الفيلم من قبل مرتين ، قلت : نعم . ولكنى أريد أن أشاهدة مرة ثالثة . فقام وبدون أن يستأذن - تخيلوا بدون أن يستأذن - وحول إرسال التليفزيون إلى قناة أخرى ، رأينا الصبية وسط الدخان يلقون الحجارة على جنود يلبسون الخوذات ويمسكون الدروع ويطلقون على الصبية قنابل تثير الدخان ، قلت له : وأنت ألم تشاهد هذا منذ يومين والأسبوع الماضى والشهر الماضى أيضاً ؟ نظر إلى وكأنى مجنونة ثم شتمنى أى والله شتمنى ، وقال كلاماً كثيراً : إنسانية ، قهر ، عنصرية ، أمريكا ، حرية ... كلام كثير لم أفهم منه شيئاً وبكيت ، وبعد هذا العمر الطويل يشتمنى أنا أم أولاده التى تحمله على كفوف الراحة ، وقالوا "بعد عنك العيب يا أم إيهاب ، وأنت يا أستاذ ، كنا نظن أنك كبرت على السياسة والكلام الكبير الذى تقوله ، يا أبا إيهاب أنت الآن رب عائلة ، تشتم أم عيالك من أجل أولاد الكلب هؤلاء ، لا ، لا ، أنت غلطان يا أبا إيهاب" ، وقلت "سياسة ؟ وهل رأيتمونى أخطب فى الميادين ؟ ثم أن هؤلاء ليسوا أولاد كلب ، وبصراحة أولاد كلب هم أنتم ، ومن أجل خاطركم الغالى أم إيهاب طالق .... بالثلاثة .

***

الشارع :

كانت البنت فاعة الطول ، يلتصق «الجينز» بفخذيها الممتلئين ، ويشد قيمصها الحريرى على نهدين نافرين فيحبسهما عن الإنطلاق فى الوجوه المحملقة عيونهما فيهما ، أو ربما فى الرسمين الموجودين على كلا النهدين ، وكان كل منهما مستطيلاً من الخطوط الحمراء فى ركن منه نجوم كثيرة متلاصقة ، كانت تتفرج على إحدى الواجهات الزجاجية لمحل الملابس ، أوقفت السيارة بجوار الرصيف قريباً منها ، كان ردفاها ناحيتى وقد ظهرت حدود سروالها الداخلى واضحة . عندما تأكدت أننى لفت انتباهها ، قدت السيارة إلى موقف قريب وأنا ألمح - من خلال المرآة - عينيها تتابعنى ، نزلت من السيارة وتركت الباب الآخر مفتوحاً ، وإلى أحد الأكشاك القريبة توجهت لأشترى سجائر، كنت أشك فى أن سيارتى القديمة يمكن أن تجذب انتباهها ، لكنى عندما عدت كانت تجلس هناك وشعرها المصبوغ بالأحمر يستريح فوق ظهر المقعد ، قلت «مساء الفل يا عسل» حملقت ناحيتى وكأنها تقيسنى بنظراتها وقالت «مساء الخير» قدت السيارة إلى شارع طويل على جانبيه أشجار عالية كثيفة الأوراق لم يكن هناك أحد يمشى ، وإنما سيارات تمرق إلى جانبنا بسرعة وبعضها يبطئ ليحملق ناحيتنا ، أوقفت السيارة تحت شجرة تكاد أغصانها تلامس الأرض ، أشعلت سيجارة وأعطيتها واحدة .

- إسمعى يا . . .

- لا تحاول معرفة اسمى ، وأظن أن هذا ليس مهماً .

- إسمعى يا أختى ، نحن أولاد آدم وحواء أخوة ، ومهما كنت فأنت أختى ، إسمعى يا أخت ، هل تحبين السبانخ ؟

- لقد تعشيت ، شكراً .

- لا ، لم أقصد ، أنا لا أدعوك للعشاء ، أعنى ، ما هو موقفك من السبانخ بالضبط ؟

حملقت ناحيتى

- عندما أكون جائعة يمكننى أن آكل أى شئ يمكن أن يؤكل ، لا فرق عندى .

- يبدو أن زوجتى - أقصد مطلقتى - عندها حق ، لا أحد يكره السبانخ سواى ، نسيت أن أقول لك أننى طلقت زوجتى اليوم ، بسبب السبانخ وأشياء أخرى ، لا ، لا تظنى أن قرارى محض إنفعال أو مجرد رد فعل لآراء أقاربها وأقاربى الذين جمعتهم ليقنعونى بالصلح وبأهمية أكل السبانخ ، إنه موقف مبدئى ، الدنيا تغلى والعالم يأكل بعضه بعضاً يا أخت ، ونحن لا نفعل شيئا سوى أن نعمل ونأكل ونتضاجع ، وكأننا نعيش فى الجنة ، ما رأيك ؟

نظرت إلّى ببلاهة

- هه ، يبدو إنك تعبان نفسيًا ، هل كنت تحبها ؟

- أظن ، لم أعـد أعرف ، على الأقل لو كـان لها مـثل هذا الجـسد . ربّت بيـدى على فخـدها ، أحـسست بليـونه ثائرة ، وضغطتّ فضحكتْ .

- إسمع ، هـل عندك مكان ؟ عندك ؟ لا أظن ، أنا عندى ، ولكن بعيد بعض الشئ .

- نتفق أولاْ ، رغم أنى لا أحب السبـانخ ، فأنا رجل عملى ، كم تأخذين ؟

- كلك نظر ، أنا أرضى بما تجود به ، عندما كنت فى القاهرة كان الخير كـثيراً ، أخوة عرب يتحملون مشـاق السفر لكى يمضوا أجازاتهم بين أفخاذنا ، فهم يدفعون كثيراً ، وأجانب يعملون فى شركات الإستثمار ، كان يدفعون لى بالدولار ، أى والله بالدولار ومقاولون وتجـار وسماسرة مصريون ، كانـوا كرماء جداً والآن ، العرب يقولون أن البترول انخفض سعره ، والأجانب سافروا بعد أن امتلأت جيوبهم ، أما المصريون فـيّدعون أن السوق قد كسدت وكسـدت سوقنا معـها ، والأدهى والأمرّ أن الواحـدة منا لم تعد تأمن على نفـسها من المشـى فى الشارع وحيـدة ، وأنت تعلم ، يخطفونا ويتناوبون على الواحدة خمـسة أو ستة ، ثم يرموننا فى

الشـارع بدون مليم واحد ، هـيه ، كـانت أيام ، والآن فى هذه المدينة البغيـضة نصف سكانها ملتحون والنصف الثـانى إما مفـ أو جبان ، متعتهم الكبرى التسكع فى الشوارع أو البحلقة فى القناة الراكدة .

- أين تسكنين ؟

- فى عزبـة التراب ، تخـيل ، من شقـة مفروشـة فى الدقى إيجارها خمسمائة جنيه فى الشهر الواحد إلى عزبة التراب .

درت بالسيارة متجها إلى هناك ، ولكنها صاحت :

- لا ، ليس الآن ، دعنا نتجول فى شـوارع المدينة قليلاً حتى تنام عيـون عزبة التراب ، فـأنا هناك أرملة التى مات زوجـها فى الحرب ، وأعمل فى فندق لأربى إبنتى من عرق جبينى .

- عرق جـبينك أم عرق « . . . . » مـا علينا ، تعالى نتـصفح الوجوة الكئيبة .

كنا على وشك التـحرك عندمـا إقتـراب منا أحدهم طلعـاً من خلف جذع شجرة .

- لو سمحت يا أستاذ

- أى خدمة ؟

- الوقـوف هـنا ممنوع ، وخـاصـة وأنـت مع « . . . . » ممكن البطاقة ؟

- مع من تعمل ، سعد بيه أم عرفة بيه ؟

جفل عندما ذكرت له الأسماء التى التقطتها من قبل فى حديثى مع قريبى «الصول» فى أحد أقسام الشرطة بالمدينة . ولكنه سرعان ما تماسك .

- لا هذا ولا ذاك ، أنا تابع لشرطة الآداب ، ممكن البطاقة ؟

- فتشت فى جيوبى وأطبقت قبضتى على ورقة مالية من فئة الجنيه وضعتها فى يده الممدودة .

- هذه هى بطاقتى ، كنا سنمضى لتونا ، سلام عليكم ، اسمع ، أنت تحب السبانخ ، صحيح ؟ بالتأكيد تحبها ، إشتر السبانخ وكل ، سلام عليكم .

أشار بيده بالتحية ونحن نمضى ، عدنا إلى وسط المدينة ، كان الشارع الذى فى نهايته نفق غاصاً بالناس .

- على فكرة ، هل تعرفين لمن العلم الذى تضعينه على صدرك الجميل ؟

- هل تظننى جاهلة ؟ طبعاً أعرف .

- ولكن ، تعرفين ؟ المفروض - على الأقل أمام الناس - أنك ضد أمريكا ، فزوجك قتل فى الحرب ، من قتله ، هه ؟ والآن ، ترفعين علمها ، هل سمعتى عن السفن العربية التى تبحر فى الخليج رافعة أعلام أمريكا طلباً للحماية ، على العموم يسعدنى أن أركب سفينتك وأمزق أعلامك .

قرصتها فى ردفها فجلجلت ضحكتها وصرخت : الناس

- ملعـون أبو الناس ، إسـمعى ، ترين ذلك الفـتى الملتـحى الذى يحمل صندوقاً خشبياً ، هل تريدين أن نلهو قليلاً ، خذى هذه القروش وانزلى لتضعيها فى الصندوق .

أوقـفت السيارة ونزلت هى ، اتجـهت إلى الفـتى مـادة يدها بالقروش ناحية الصندوق ، وكما توقعت تماماً ، ظهر الذعر على وجه الشاب عندما لمحـها ، وبسرعة إستدار وتحـرك ناحية الحائط القريب ، وظل مـولياً إليهـا ظهره ، نظرت البنت ناحيـتى بوجه إحمـر خجلاً ، أشـرت إليها أن تكرر المحـاولة ، وأنا أحاول أن أكتم ضحكـة تكاد تنفجر ، إتجهت إليـه وسمعتهـا تقول «يا عم الشيخ ، أريد أن أتبرع» ، وبدون أن يتلفت إليها صرخ :

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، لو سمحتى لا نريد تبرعك إذهبى فى طريقك ، لو سمحتى .

عادت إلى السيارة وقد أصبح وجهـها فى لون شعرها الأحمر ، إرتعـشت شـفـتـاها وهى تنظر إلىّ وقـد غـرقـت فى نوبة من الضحك .

- كنت تعرف ، أنت خبيث ، كنت تعرف أن هذا سيحدث ، أنت غريب ، إسمع ، أنا ذاهبـة ، الآن ، لن أبقى بعد هذا ثانية واحدة . لم أكن قد أفـقت بعد من نوبة الضحك الهسـتيرية التى

انتابتنى عندما نزلت من السيارة واقـفلت الباب بدفعه قوية اهتزت لها جوانب السـيارة القديمة ، انتبهت وهى تعـبر الطريق ، كانت تنظر ناحيتى بغضب وتغمـغم ببعض الكلمات ، لكنى لم أحاول حتى أن أشـير إليـها حتى اخـتفت عن ناظرى فى شـارع جانبى وعيناى معلقان برد فيها الراقصين ، كانت رائحة ما كريهة تتسرب إلى أنفى ، تشتد شيـئاً فشيئاً ، نزلت إلى مـحل قريب واشتريت مناديل ورقية معطرة ، وضـعت أحدها على أنفى ، واتجهت إلى الشاب ذو الجلبـاب الأبيض ، الذى استعـاد هدوءه الآن ، وكان يصيح :

- يا أخوة الإسلام ؟ ، تبرعوا لإخوانكم المجاهدين الأفغان ، يا إخوة الإسلام . . .

- السلام عليكم يا أخ .

- وعليكم السلام .

- إسمع يا أخ ، أنا لن أتبرع .

- نظر إلى لحظة متأملاً ، ثم عاد يصيح وكأنه لم يسمعنى .

- يا أستاذ ، أقول لك لن أتبـرع ، لماذا لا تسألنى عن السبب ، من باب الفضول على الأقل .

كان قد تجمع حولنا الآن بعض المارين ، وكان هو مازال يزعق فيهم أن تبرعوا .

- يا جماعة ، ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع ، وإذا كان لنا أن نتبرع يا أستاذ أو ليس الجار أولى بالشفاعة ؟ على كل حال، أنا أظن أنك تشترى بكل ما تجمعه فى صندوقك سبانخ ، لا ، ربما ستشترى أرضاً لتزرعها بالسبانخ ، من المؤكد أنك تحبها ، وكنت أسأل نفسى من أين تأتى الرائحة ، أنت ؟هه ، أنت ؟

وضعت المنديل المعطر على أنفى ومضيت نحو السيارة وأنا أسمع صيحاتة «مجنون ، كافر ، يأتى زمان على أمتى . . . .»

قدت السيارة إلى الشارع الطويل الذى على جانبيه أشجار عالية ، كنت آمل أن أجد البنت ذات الأعلام هناك ، ولكن لم يكن هناك غير الضوء الخافت وحفيف الأوراق والعربات التى تمر بسرعة ، والرائحة التى صارت الآن نفاذة ومثيرة للغثيان رغم المناديل الورقية المعطرة التى غطيت بها أنفى وفمى ، لم أعد قادراً على التحكم فى المقود ، أمامى خيالات الأشياء تتراقص ، توقفت ، وعند نفس الشجرة التى خرج من ورائها المخبر أسندت رأسى إلى جذعها ، ومضيت أفرغ من جوفى كل ما أكلته فى حياتى .

لا أحب أن أرى أحـداً يبصق ، وأنا لا أبصق أبداً ، حـتى أن الطبيب قال لى أننى سأموت مبكراً لأننى لا أخرج «البلغم» الذى يملأ صدرى وفى جبهتى - بين الحـاجبين - أثر لجرح قديم أحدثه أحدهم حين شتمته لما بصق أمامى ، وأعرف له بغير ما حاجة إلى محلل نفـسانى - سبب تلك الحـساسية الشـديدة من البصق ومن يبصـقون : كنت فـى صباى أنام وأبـى وأمى فى حجـرة واحدة وعلى سرير واحد وفى كل ليلة كان الشجار يندلع بينى وبين أمى فيـمن ينام إلى جـوار الحائط فقـد كنت أكرة ذلك ، كـانت أمى تسعل طوال الليل ، وبعـد كل نوبة سعال كانت تقذف بصـقاتها المتكررة إلى الحائط لتـستقر فوقـه ، مع مرور الأيام تكونت فوق الحائط المجاور للسـرير طبقة لامعة من البـصاق مثيرة للغـثيان ، إشتـريت لها من قـروشى القليلة - التى أكسـبها مـن عملى فى الإجازة الصيفية دواءً يوقف السعال والبصق فسكن السعال ولكنها ظلت تبصق .

***

لو انتظر قليلاً لأفهـمته ، لكنه مضى بعـد أن فعلها ، وأين ؟ على وجهى ، أطلـقها قـذيفة ملأت وجـهى وسكنت قلبى ، لم

يقل بعدها سوى بضع كلمات : «هذه لكل الأسماك من نوعك» ، ومضى ، لو انتظر قليلاً لأفهمته .

* * *

لى أخت أرملة كانت تقطن فى الغرفة الثانية فى شقتنا الضيقة فى حارة الكعكى مع أبنيها بعد أن مات زوجها حين دمرت مصنعه قنبلة من ذوات الألف رطل أسقطها إسرائيلى من طائرته الفانتوم ، لم يعثرو على جثته ، وكنت أحب أن أقعد فى حجرتها لأقرأ المجلات النسائية التى تستعيرها من جارتنا الخياطة ، وأتفرج على الصور العارية فيها بينما هى فى السوق ، ومرة ضبطتنى أمارس عادتى السرية على سريرها وأنا أبحلق فى مجلاتها ، رمتنى بحذائها وقالت «أخرج يا فاجر ، وبصقت فى وجهى» .

* * *

«فيفا» يصنع أشهى أنواع الحلويات وأرقاها ، بالنيون الأخضر ، والأحمر والأبيض كان ذلك معلناً على واجهة المحل اللامعة ،كنا - أنا وزوجتى - فى السيارة ننتظر أن يأتينا العامل - الذى كان يمرق وسط الزحام بما يحمله كلاعب أكروبات بارع - بما طلبنا ، نبهت زوجتى ساخطة إن على أن أوبخه عندما يحضر «الأيس كريم» ، لأنه تأخر كثيراً وعادت لتؤكد أننى لن أفعل «فأنا أعرفك» ، كنت أنحنى على جهاز الراديو أعالج أزراره حين لكزتنى سميرة مومئة إلى رجل عجوز طويل القامة نحيف الجسم

يرتدى قميصاً باهت اللون وبنطالاً فضفاضاً - يحملق ناحيتنا ، «تعرفه؟» .

إقترب الرجل ، سمعت الصوت الأجش - يعلو بإسمى ، عرفته ، أعوام طويلة قد مرت ولكنى عرفته «عم سعد ، عم سعد بنفسه «قبل أن أفتح باب السيارة كانت يده المعروقه على حافة النافذة تمنعنى من النزول «لا والله لا تتعب نفسك يا بيه» .

- عم سعد ، أنت . . .

إسمع ، أقرأ كلامك «المزوّق» ، يقرأه لى ربيع هل تذكره ؟ هل تذكر إخوته ؟ ها هى تحيتهم إليك .

كوّر فمه الواسع وكالقذيفة أطلقها فملأت وجهى ، قال كلمته ومضى ، لو انتظر قليلاً لأفهمته .

* * *

كانت «المضغة» و«العطرون» أرخص أنواع الكيف ، ولأن الرجال لابد أن يكون لهم كيفاً قد اختارهما أبى ، بعد أن يتناول غذاؤه يمضى إلى عتبة باب البيت يخرج من «الصديرى» علبة الصفيح ، يفتحها ويكور بأصابعه «المضغة» ويضعها تحت لسانه ، ويتبعها بحصوة عطرون ، وبعد دقائق يبدأ فى البصق على الأرض وهو يداعب بأصابعه حبات مسبحته ، إكتسب خبرته فى أن يقذف ببصقاته لتصل حتى منتصف الحارة ، لما بدأ أهل الحارة

فى الشكوى وقالوا أنه سيغرق الحارة فى بصاقه - أحضرت له صفيحة صغيرة فارغة ملأت نصفها بالرمل ليبصق فيها ، ولكننى كنت دائماً أجدها نظيفة ، فقد ظل يقذف ببصقاته بعيداً ، أصبحت بعد ذلك أضعها - حين جلوسه على عتبه البيت - أمامه فى منتصف الحارة .

* * *

«لن تفهمنى» ، قلت لها : لن تفهمى» ، ولكنها صاحت بأنها ليست غبية ولابد أن هناك ظروفا غير مشرفة قد جمعته بمثل هذا الرجل الحقير الذى يطلق فمه القذر على المحترمين من الناس «ولو لم يكن الأمر كذلك ، فكيف تتركه يمضى دون أن تمزقه وتحطم فمه الخرب؟» صرخت فى وجهها وأنا أدس المنديل فى جيبى بعد أن مسحت وجهى «أسكتى ، أرجوك» . لم نأكل «الأيس كريم» لأننى أدرت محرك السيارة وأنطلقت بعدها ، أكاد لا أرى ، وأنا أحس حريقاً فى وجهى .

فى الليل لم أنم ، فمازال الحريق يلتهم وجهى ، وضعت لى سميرة كمادات الثلج ولكن الحريق كان يذيب الثلج ليلتهم وجهى بعدها ، الغريب أنه لم يكن هناك أى إلتهاب ظاهر أو حتى مجرد تغيير فى لون الجلد ، ذلك ما قالته زوجتى وما أكدته مرآه التسريحة فى غرفة نومى .

في الصباح ذهبت إلى الطبيب ، فـحص جلد وجهى مرة ومرة ، بعينيه ثـم بعدسته ، هز كتـفيه وكتب لى فى ورقـته إسمىّ دهان للجلد ودواء للحساسية ، عـدت له بعد يومين ومعى زوجتى لأن الحريق ما زال فى وجهى ، حكت له زوجتى ما حدث عند «فيفا» وأومأت إلى اعـتقلوها بأن بصاق الـرجل الحقيـر لابد هو السبب ودفعت إلى الطبـيب بالمنديل الذى مسحت بـه وجهى ساعتـها ، أخذ الطبـيب عينه من جلد وجهى وقـال «سنقوم بتحليلهـما فى المعمل : الجلد والمنديل» ، فى اليوم التالى ذهبنا واستلمنا التقرير ، لم أنتظر حتى نصل إلى البيت لأقراه ، بمجرد جلوسنا فى السيارة أخرجت الورقة من الغلاف الأصفر وقرأت :

المنديل - الفم :

فقر دم حـاد ، سوء تغذية ، أحلام غارقـة فى الفول المدمس والعسل بالطحـينة ، ثلاثة أطفال بلا أم أكبـرهـم - ربيع يعرج ، كواء والمكواة الكهربية الحديثة فى البيوت قطعت عنه رزقاً وفيراً ، الدكانة فى شارع عثمان المتفرع من شارع الصناديلى لها باب يفتح على شـقـة من غرفـتين وصـالة ، كـان - فى الزمن البـعيـد - للأرضية بـلاط يغطيها وللحوائط دهان يكسـوها ، وليس ثمة فى الشقة غـير خمس «كنبات» مـوزعة على الغرفتين وفـى إحداهما بقايا دولاب خـشبى ومنضدة ، لما رآه لم يكن بحاجـة - بعد كل

هذه السنين - ليعصر ذاكرته ، فصورته فى المجلة التى تنشر له يعرضها عليه ربيع كل شهر ليتحسر على حلم قديم . لم يستطع أن يمنع نفسه ، ما الذى أثاره ، السيارة ؟ البذلة الأنيقة المرأة ذات الطلاء الفاقع بجواره «فيفا» ملتقى أولاد الذوات واللصوص ؟ لم يستطع أن يمنع نفسه ، أو ليس من حقه أن يفعلها ؟ أو لم يخنه هو شخصياً حينما أحرق زهرته التى غرسها هو فيه ؟ فعلها ولم يخافه ، خرجت من فمه قديفة ، لم ينتظر حتى يرد عليه ، يعرف أن يستطيع أن يتكلم كثيراً كلاماً يبدو مقنعاً ، هى صنعته الآن ، ولكن لا ليس على أبى ربيع ، ماذا يفيد أن ينتظر كلامه بعد ما كان ، والدكان على بعد فركة كعب من ميدان الجيزة وكان الميدان كساحة حرب ، عندما جاءه ربيع وصاح «يابا التلامذة مشتبكين مع العساكر والدنيا مقلوبة» ، ذهب ليتفرج ، فقط ليتفرج ، فى رقبته ثلاثة أطفال بلا أم علموه الخوف من الحكومة ، ترك ربيع فى الدكان وذهب ، ورآهم يملأون الميدان ويسدون الشوارع الرئيسية المؤدية إليه ، يلبسون الخوذ الحديدية ، يرفعون على صدورهم الدروع ويمسكون العصى ، بعضهم يضع على كتفيه نجوماً ويطلق على الفتيان علباً صغيرة كان ينبعث من قلبها دخان تسيل له العيون وتختنق الصدور ، لم تمض دقائق حتى كانت كفه الخشنة ممتلئة بالأحجار يطلقها فى اتجاه الوجوه الحجرية ، يقذفهم بالأحجار وبأطفاله الثلاثة وقدم ربيع العاجزة والفول وفقر

الدم والفـراش المملوء بالبراغـيث ، أو ليس من حـقه أن يغـرق وجـهـه إذن ؟ لم ينتظر رده ، ومـاذا كـان يمكنه أن يقـول ، لم يستطع أن يدع ربيع مرة واحدة يكمل قراءة مـقالة واحدة مما يكتبه يوما قاله له : أنا سمك الفـقراء ، إذا خرجت من بينهم مت» ، هأ ، أو ليس من حقـه إذن أن يخرجها من جوف جـوفه ويكور فمه ويضعها على وجهه رداً واضـحاً ، ورأى الفتى النحيف يتعثر في حافة الـرصيف ، أطبق عليه الجنود قبل أن يسـتطيع النهوض وأنهالوا بعصيهم على جسده المتكوم ، صاح «تحيا مصر» .

وتقدم مجموعة كبيرة من الشباب أنهالت حجارتهم على الجند المتكومين حول الفـتى فتراجـعوا : تاركينه ممداً فـوق الرصيف ، وبسرعة كان الفتى محمولاً إلى داخل الحارة ثم إلى دكانه ، وجاء «عبده الحـلاق» فطبب الجسد النحيف على قدر مـا يستطيع ، ما الذى أثاره بالضبط : أوجـهه الحليق المتورد ؟ أم جـسده الذى لم يعد نحيفاً ؟ أم «الجيلاتى» الذى ينتظر التهامه من «فيفا» ؟ قالوا له إنهم يزورون بيته كل ليلة ، يقفون على أبواب الجامعة ويجوسون طرقاتها بحثاً عنه وعن كثيرين فأصر أن يبقى الفتى عنده وإن «لم نكن على قد المقـام» غمغم الفتى بالشكر وأوضح أن مـقامه ليس أعلى كثـيراً ، وبقى فى شارع عـثمان شـهرين كاملين ، سـيارة وإمرأة جميلة وبـدل أنيقة ، هل الصفقة مربـحة ؟ لا يعرف كيف يمسك بالقلم ، ولكنه خطهـا على وجهـه حادة واضـحة حـارقة ، ومضى .

* * *

الجلد – الوجه :

لو انتظر قليلاً لأفهمته ، سألته يوماً : كيف ماتت أم ربيع ؟ أجاب باقتضاب «الفول ،والبراغيث» ، أمي أنا ماتت من الفول والبراغيث وداء الصدر ، لم ينفعها الدواء الذى اشتريته لها ولم يشفها مكوثها فى المستشفى الأميرى لأسابيع طويلة وماتت تاركة مكاناً أوسع على السرير يتيح لى أن أبتعد عن الجدار ذى طبقة البصاق المقززة – عند نومى ، هو أدرى الناس بما يفعله الجوع ، حاربت لكى يأكل كل الجوعى وفشلت ، تعبت ، أليس من حقى أن أعيش لى يومين ؟ الغريب أننى لم أغضب حين بصق على وجهى ، لكنى كنت أود لو انتظر قليلاً لأفهمه كنا بعد أن نرجع من المدرسة نفرغ كتبنا من الشنطة القماشية ونعلقها على صدورنا ونمضى نجوب البلدة كلها نلتقط بذور البلح ، فإذا ما امتلأت حقائبنا إنطلقنا إلى «الخواجة وديع» الذى يربى الخنازير فى منطقة بعيدة عن البلدة فنبيعه ما جمعناه فى يوم كامل كل حقيبة بقرش أوحشنى شارع عثمان وعبده الحلاق ، حسن البقال ، بيكا الميكانيكى وبطة تلميذة الثانوى التى كانت تسكن فى الشباك المقابل للدكان عندما أكون جالساً هناك ، وربيع ، حكى لى مرة : «كانت أياماً صعبة ، ولم يكن عندى من الأولاد غيره ، لم يكن يتعدى السادسة ، وأذكر ، كان الصيف أيامها فى صعوبة حصولى على الرزق ، عندما جاء به حسن البقال حاملا إياه بين

ذراعيه ، وقد أغرق الدم النازف من قدمه جلباب الرجل ، صاح فيّ الرجل أن أسرع إلى المستشفى عندما توالت أسئلتى عن من وكيف ، حملته وجريت إلى المستشفى ، قالوا أنهم سيجرون له عملية ولكنه لن يمشى بعد ذلك معتدلاً ، عرفت بعد ذلك أنه حاول أن يسرق بطيخة من البائع على ناصية الشارع الكبير فلمحه الرجل الشرس وفى فورة غضبه صاح فى الولد ، بينما قذف نحوه بالسكين فاصابته فى كعب قدمه ، أخذوا الرجل إلى قسم الشرطة ، دفع كفالة وخرج ، ومن يومها والولد على ما تراه» وكنت أحب طفلىّ أختى ، كنت أحلم ألا يتكسّبا من جمع بذور البلح لتأكلها الخنازير ، وألا تصيبهما سكين بائع البطيخ حين يشتهياه ، إبى هدّه العمل فى المحاجر والشيخوخة ، وأنا كنت أكتب على المنضدة ذات الأرجل الثلاثة فى غرفة بلا بلاط فى شارع عثمان - مقالات كلماتها خناجر ورصاص ونار ، يقولون أنى أكتب الآن ثلجاً ، من حقى أن أعيش يومين ، أبى بكى لما سجنت . كنت قوياً ولكنه بكى ، أختى قالت أنه أصبح لا يتعاطى المضغة ولم يشتر ثوباً من سنين ، ليوفر لى مصروفاً شهرياً ، لو انتظر قليلاً لأفهمته ، أوحشنى ، وأوحشنى شارع عثمان وبطة التى كانت تحلم بى فى الشباك وكنت أحلم بها وبأشياء كبيرة كثيرة ، لو انتظر قليلاً لقلت له أننى أعيش فى شقة فاخرة وبين أحضان زوجة جميلة ولكنها حياة كطعام بلا ملح ،

أشتهيت البطيخ وأعرف الآن أنى دفـعت ثمنه أكبر من كعب قدم ، ولكنى الآن أعـيش ، حلمت ألا يموت طـفلا أخـتى جـوعـاً أو كأبيهما ، من قنبلة يسقطها وحش بنجمة مسدسة ، لو أتيحت له الفرصـة كى يعيش أما كان يسـتغلها ؟ ،يعـيش حياة «ماسـخة» ولكنه يعيش ، لو انتظر قليلاً لسـألته ، أوحشنى «العيش البلدى» الساخن والفول والعسل بالطحينة ومناقـشاتى معه ، قال بعدها - هو الأمى - أنى زرعت بداخله زهرة بأشواك حادة ، وأنا الآن لا زهور ولا أشواك ، لو انتظر قليلاً ؟ لكنه خطها على وجهى حادة واضحة حارقة ، ومضى .

* * *

انتبهت على ثرثرة سميرة وكـأنها تتكلم من مكان بعيد ، بعيد وفجأة فتحت باب السيارة ونزلت .

- سميرة ، أنت طالق .

حملقت مذهولة .

- نعم ، أنت طالق ، حفلاتك طالق ، أبوكى الغنى طالق ، كل الأغنياء طالق وعرباتك طالق .

نزعت عن جسدى السترة والقيت بها إلى جانبها .

- وبذلك الأنيقة أيضاً طالق ، حياتك كلها طالق .

- صفقت باب السيارة وجريت ، جـريت بكل ما أملك من قوة ، عبرتُ ، الميـدان بين العربات بسرعة كسرعة عـامل «فيفا» بين زبائنه ، ولجت إلى الحـارة الضيـقة ، ركضت إلـى الدكان ، كان واقفاً ببابه وكأنه كان ينتظر قدومى وعلى وجهه ابتسامة أشهى من طعم البطيخ واعتنقنا .

إنتبهت على صوت سميرة .

- . . . ولكنى أظن أنه من الأفضل أن نعود إلى المنزل ، أنت تبدو كمحموم ، هل نذهب إلى الطبيب ؟ هل تستطيع القيادة ؟

- يمكننى أن . . .

وبسرعة أدرت المحرك ، ومضت السـيارة تنهش الطريق كخيل مذعورة .

١٩٨٣

٧

من فوق هامتى تمرق الطائرات بعد أن تهوى بنارها على أسوار المدن الهشة فتسّاقط الواحد بعد الآخر ، جدائل شعر ولعب أطفال وأطقم أسنان وأحجبة ولحوم وعظام وأكواب وشظايا قنابل تصنع أهرامات كبيرة وصغيرة ، أحصيت حتى المائة والخمسين ألف ، وبعدها تعبت ، كنت على تلة أحصى و كانت الدبابة هناك بعيدة ، ولكنى بعد أن أغلقت دفترى ونظرت رأيتها أسفل الكتلة وعلم بخطوط حمراء يرفرف فوقها ، كان الرجل السمين بملابسه العسكرية يشير من فتحتها ناحيتي ويصرخ ، تحركت الكتلة الحديدية الضخمة فى اتجاهى اقتربتْ ، اقتربت حتى بدت صلعة الرجل السمين وعلامات رتبته العسكرية الكبيرة ، إقتربتْ ، رفعتُ كلتا يدى فوق رأسى إقتربتْ ، أخرجت منديلى الأبيض ولوّحت منفعلاً ، ولكنها ظلت تقترب ، عينا الأصلع زرقاوين وكان يبتسم ، وقدماى مسّمرتان ، متر واحد ، نصف متر ، ربع متر . . . وصرخت .

هل هو البيض المقلى أم تلك الكتلة الصلبة المستعصية على الخروج منذ أيام فى أسفل أمعائى ، حلقى جاف ، كان الولد يسعل وأمه تغط فى النوم ، قمت إلى المطبخ وشربت ، قلت : اللهم أجعله خيراً ، وأحسست بالثقل فى أسفل البطن يلح على

عضلاتى ، ذهبت إلى الصالة ، أشعلت سيجارة وتناولت الجريدة ، تركت باب الحمام مفتوحاً ، كان الطبيب فى التليفزيون قد نصحنى ألا أعتصر العضلة ، أحسست ببرودة القاعدة الخزفية وأنا أرى الرجل السمين الأصلع فى الصفحة الأولى يبتسم وهو يأسف - أسفل الصورة من وجود ، مائة ألف أسير يرفضون العودة إلى وطنهم ، ولكن يجب ألا أعتصر العضلة ، عرفت من الصفحة الثانية أن «بربارا بوش» أكثر السيدات أناقة فى العالم ، كان صوت سعال الولد يعلو على صوت محرك الثلاجة ، هل أعطته الدواء أم نست كعادتها ؟ الولد بنيته ضعيفة لكنه يوما ما سيكبر ويكون له شأن عظيم ، أعده لكى يكون شيئاً ، أعلمه أن يقول «لا» للجنرال السمين ، كانت السيجارة قد انتهت عند الصفحة الخامسة فألقيت بها خلفى ، سمعت الصوت «تششش» وقد أمّلتُ خيراً حين صارت أندية الأقاليم تنافس على القمة ، لكنى لا أعتصر العضلة ، مرة أخرى يسعل . سأعطيه الدواء بعد أن أنتهى سيعيش ليشجع أندية الأقاليم ويقول «لا» أنا أشجع الأقاليم وأستطيع أن أقول «لا» سأقولها فإبن الكلب يدوسنى بالدبابة رغم أنى لوحت له بمنديلى ، سأقولها فلم يعد الأمر يحتمل السكوت عليه ، «لا» لكل ما يحدث وسأعتصر العضلة ، ماذا قال يومها «باسور ، ناصور ؟» لا يهم سأعتصر العضلة عند الصفحة الأخيرة أحسست بقلق ما ، كنت مازلت أحاول لكن الكتلة لا تتحرك ، كانت ذرات العرق قد بدأت تنسال على عينىّ ، رغم أن الوزير كان

يؤكد أننا نسير فى الطريق الصحيح إلا أن قلقاً ما كان يستولى علىّ فى هذه اللحظة ، نحيت الجريدة جانباً لأمسح عرقى بكم البيجامة ، حينها عرفت ، فى لحظة كانت عيناى - الجاحظتان لابد - قي انتقلت بسرعة من حذاء رياضى ضخم عند باب الحمام إلى عينين حمراوين فى وجه أسمر سمين ثم إلى يد خشنة تحمل سكيناً طويلاً يشبه السيف ، كنت أسمع دقات قلبى السريعة أعلى من صوته الذى انطلق فى همس حاد وهو يهز سكينه «ولا كلمة ولا حركة ، إخرص» ، وصلت الدقات إلى نافوخى ، الولد يسعل ، أمه نومها ثقيل ، نبهت عليها كثيرا أن تتأكد من إغلاق نافذة المطبخ ، هو ضخم الجثة كالجنرال وسكينه كبيرة ، يأخذ ما يريد ولا يمس الولد ، أحترقت عيناى من العرق المنساب من جبهتى ، عندما صرخ زاماً شفتيه الغليظتين «إخلص» أحسست بما يشبه الفرح أن كتلة صلبة إنزلقت وارتطمت بالماء وتبعتها كتلة أخرى وأخرى ، مسحتّ عرقى بكم البيجامة وأنا ألمح شبه ابتسامة على وجهه وقال بصوت رفيع بدا غريباً أن يخرج من مثل جسده «قوم ، الفلوس والدهب ، بسرعة» ، ضخم الجثة كالجنرال ، لا لكل ما يحدث ، لكن السكين كبير والولد يجب أن يعيش ليقول «لا» عندما يكبر ، والفلوس تروح ويأتى غيرها ، الولد يسعل ، كنت أتكئ على الغسالة أحاول القيام حين لوح بسيفه «تعالى ورايا ، تبعته حافى القدمين وأنا أجرجر بنطالى بين قدمىّ .

يا شارع المستشفى ... المشانق فيك كتيرة

زمان ماكانش غير خطين ، رفيعين وطوال ، على الخريطة الورق شاور مهندس كبير على مربع صغير «من هنا نبدأ من مستشفى الأميرى» ، مشى بصوابعة ناحية الصحراء ، وجه مهندس كبير - غيره - رمى الخطين الرفيعين الطوال على الرملة ، جاب الفوعلية والأسفلت ، ولوّن الرملة بالأسود ، زرّعت على الخطين بيوت عالية ، دواوين ، دكاكين ، مدارس ، أكشاك وجناين ، زادت شوارع بلدنا بشارع المستشفى على الرصيف دبّت خلايق كتيرة ، فوق رؤسهم ، حبال خشنة ومعقودة تهزها ريح الزمن تتهز .

مشنقة :

بعد أدان الضهر بساعة يرمى الديوان فى البحرى ناسه ع الشارع يتزاحموا على البوابة أم سلالم قدامها ، تطلع قبله ، تتخطى راجل قاعد على كرسى بعجلات وبيزعق فيها وفى الناس «يلا يا مسلم» ، تقصر خطوتها على الآخر ، لحد ما توصل للعمارات الصفرا ، يتجاوروا فى السكة هناك ، بعينها الزرق - لا السما ولا مية البحر الطرية زيهم - تخض عنيه - المليانين

حزن النوارس فى الشبك - ويبتسم تضـحك يصير أسفلت شارع المستشفى أبيض كما رخام الجوامع ، يلمح صليبها الدهب بيتمرجح على صدرها العمران . مرّة من مدة ماكانتش لابسة الصليب ، ولما سألها قالت له :

- يستحسن مالبسهوش ، بما إنك ساكن نفس الشارع دوا ، والناس عارفاك ، والباب اللى يجيلك منه الريح . . .

- أنا عايز الباب مفتوح ، عايز الناس كلها تعرف .

لمست صدره بإيدها «قميصك فيه زرار مقطوع» ، صوابعها كانت مدملكة وحلوة ، وكان بيحب صوابعها ، لمست قميصه اترعش (ماكانش ف قميصه ولازرار مقطوع) ، كان بيحب صوابعها ، يحلم بيوم يضمهم كفيه ، يريح دماغه على مرعى الدفا فوق صدرها الشامخ ممكن صليبها الدهب يجرّحه فى خده ؟ على الرصيف اللى قصاد المدرسة الثانوى كان فيه تلات تجار قاعدين بيتهامسوا ، كان التخين بيبتسم من تحت دقنة الكبيرة ، والتانيين بيبحلقوا فيما أبدع الخلّاق فجأة قال لها «اعدّى ، عايز أشرب من قله الحلاق» ، قال «السلام ، قالوا وعليكم» ، بعد ما ضحكت بين شفايفه ميه القلة بصلّهم وقال «دى حبيبتى ، وإن شاء الله هنتجوز قريّب» ، ضحك التخين وهو بيفرك دقنه «تكسب فيها ثواب والله» .

- أنا هاتجوزها علشان أكسبها ، مش . . .

شدت كمه «يللا بينا» ، كانت الكعكة فى ميدان المدارس طوق حجر بيضيق على رقابهم ، نز العرق زى الدموع ، الشمس فوق فى السما قاسية قساوة قلب التخين أبو دقن ، عدّوا الميدان فى خطوتين ، كان عم «وديع» واقف على ناصية «وادى حلفا» - كان يظهر مستنيهم - وقفوا وقالت «سعيدة» ، كانت نيران الخجل فوق الخدود شعلة ، والرعب رعش إيدين العجوز وصحى ف عنيه الميتين غضب مكتوم .

- ممكن لو سحتولى كلمتين وامشى .

وكأنه بيسمع صوته الدهبان للمرة الأولى ، رغم أنه بيشوفه يومياً فى الشغل ، يطلب منه الشاى فيهز وديع الساعى دماغه مايتكلمش يحط صينيته على المكتب ويهز دماغه ويخرج .

- إنتم لا مؤاخذة عاملين نفسكو ناصحين ، أوعوا تفتكروا إكمن مافيش فى الشغل كلام بينكم يبقى ماحدش عارف ، كل الناس عارفة وبياكلوا فى سيرتكم ويحلوا بالضحك عليكم ، لا مؤاخذة يعنى مافكرتوش لحظة ؟ بالذات فى الأيام السودة دهية ؟ حكايتكم ممكن تحرقكم ، تحرق شارع أو حى بحاله ، ، أنا مستغرب : هل ممكن واحد ينسى الملة بتاعته علشان تمشية من البحرى لشارع سينا ؟ بصراحة بينكم بحر الدم غويط ، أنا سنى

قد أعماركم انتو الاثنين وباحـذركم ، يا إما البحر يغرقكم أو كل حي يروح لشطه ، باحذركم ، باحذر . . .«حـريقة وبحر ودم ، لأياعم اللى بيّنا جسـر خوف ، وفى قلوبنا يماما يرفرف ، زهرة تدبل تتروى بدم القلوب ، تصحى تضحك ، إحنا فرعين من نهر واحد ، بـينهم الدلتا الولودة «قـال لها كل الكلام دا حين كـانت صوابعها المدملكة الحلوة بتخنق صليبـها الدهب ، كان نفسه تقول له «أمّال» ، ماقـالتش ، فبصلها ، بـص لنعيها السـماوى كانت غيوم الدمع مليانة مطر ، أسفلت الشارع زاد قساوة ، على ناصية شارع سينا ومن غير ماتبص قـالتها «سلام» ، وكأن وراها مشاعل وحجارة وعيون غدّارة ، رمحت ناحية بيتهم ، وماقالش «سلام» ، لف بجسـمه وواجـه غدر الشـارع والأسفلت ، ورغم أن شـعاع الشمس ساعـتها كان بيلسوّع فـى وشوش الخلق ، لكن ، شارع المستشفى اتمدد قدامه ، طويل طويل ومضلم .

مشنقة :

- ست سجاير وكبريتة

الساعـة اتنين بالضبط يكون قدام حـسن البقال فى البـحرى ، يديله القاعد ع الكرسى أبو عجـلات ورقة بخمسين ، يطلع فوق التلتوار وكأنه طالع مدنة ، ينهج ويكح ، ويمد الأيد المليانة عضام وعروق .

- ست سجاير وكبريته يا عم الحاج ، مسكين ، أتصاب فى تلاتة وسبعين .

حسن البقال مابيسمعش النص التانى من القول ، لا يمهمه مين اللى أتصاب ولا مين اللى أتجوز ، حيث ممكن دا يكون معناه «حسنة يا عم» فيقفل ع الموضوع ، يأخذ حقه وتأخد حقك ، وأمشى الله لا يسيئك . يقعد ع التلتوار قدام المبنى أبو سلم على بابه ، يمسح عرقه من على وشه اللى اتكرمش من مدة ، بديل جلابيته الدهبانة ألوانها من مدة ، على مايخلصوا سيجارتهم فى تلات أربع تنفاس ، يكون ديوان المحافظة رامى ناسه ع الشارع ، يزق الكرسى لغاية البوابة ، يكبش ابنه القاعد ع الكرسى من قدامه كتاب وشريط ، يرفعهم فوق بإديه .

- يلا يا مسلم ، يللا يا مسلم ، تفسير سيدى البشبيشى ، الطب النبوى المداوى ، عذاب القبر ، الدعاوى ، الرد على النصارى والكفرة ، شريط الشيخ السبعاوى ، يللا يا مسلم ، يللا يا مسلم . يهمس القاعد ع الرصيف من بين ضراضيره «كتابين بس يا ربى نتغدا مش لازم نتعشى ، نتغدا ومعانا سيجارتين تبقى نعمتك زايده» . جربوا بيع الروايح والمشاط . مرة تانية باعوا عسل نحل والجبنة القريش ، مرة تالتة الحلاوة والسجاير . » ملعونة السوق لما تكون زى الرحاية بين حجرينها مافيش إلا تراب ، احنا بنطحن لما دراعنا يتسل أو يمكن احنا بين

الحجرين ؟ جايز» ، بص لابنه بعيـونه الدبلانة ، كان لسه بيزعق في وشوش الطالعين من جوة وهو لسه بيهرش دقنه ، حتى فى وش البنت اللى صليبها بيتـمرجح ع الصدر الغاير «يللا يا مسلم» ، آ ، ممكن تشترى لصاحبها كتـاب ، بعد دقايق هيشوفهم ماشيين تحت حيطان الـشارع يتهـامسـوا ، وأصحاب الدكـاكين بيمـصمـصوا شفـايفهـم زيه ، وابنه يقول «كل حى يشـوف طريقه» ، أبتـسم الراجل من بين ضراضـيراه كان ابنه بيـبيع كتابين وشـريط ، كان الفراش بيقفل بوابة الرزق والبيـعة بتخلص ، ضم ايديه ونفخ فيهم ، بيطرى العضم المتيبس ، «يللا يابا» ، على شـارع المستشفى حرك الكرسى ، وكـان كل ما يشـوف واحـد بدقن يوقف هو الكرسى ويزعق ابنه «يللا يا مسلم «حتى التاجر أبو دقن كبيرة قدام مدرسة الثانوى رغم أنه عمره مانفـعهم (يظهر أنه مش بيفك لخط) يزعق عنده «يللا يا مسـلم» ، يشربوا من قلل الحلاق وإذا كـان الحلاق مش واخد باله يكبوا على دماغهم حبة ، يمسح وشه بكم الجلابية الدهبـانة ويّميـل على إبنه «إيه رأيك ، مـرضيـة ؟ ، نمشى على البيت يا ابنى يـا دانيال» ؟ ، يهز دمـاغه دانيال ويغـمض عينه ، ورغم أن شعاع الشمس ساعتها كان بيلسوع فى وشوشهم ، لكن شارع المستشفى اتمدد قدامهم ، طويل طويل ومضلم .

١٩٩٢

الجزء الثالث :

أحلام وسكاكين

في الفرجة بين الليل والليل أسعى بلا ملامح تقريبا ، لكن حين يصير الليل لى أتذكر هويتى ، أضم بين أصابعى قلما وبين جوانحى الملأ ، أشخبط فى أوراقى : «نرجس ، روح ، حزن ، فلوس ، اله» أمى تصيح من الصالة «تعالى لنشرب الشاى» ، أمى تصيح فى الصالة «ليس لك فى الطيب نصيب ، بنت السمرى لن تجد حيراً منها» ، أرشف شايها ولا أقول أنها أول من نصحنى بالانفصال لأنها سمراء وأنت أسمر ، إن شاء الله ستلد أطفالاً ترمونهم فى الزبالة» ، ذلك لأن أمى تمقت البنات القبيحات وتكره البنات ذوات الجمال الوسط ولا تحب البنات الجميلات . أرشف الشاى بسرعة قبل أن يصل حديثها كالمعتاد إلى مصروف البيت فتنصب لى مشنقة المسئوليات المنزلية . هواء الشارع يحررنى لدقائق ، ولما أصيح «كل هذا الليل لى» استريح قليلا ولكنى بعدها أعرف أن مخاتلة النفس تحتاج لموهبة تنقصنى ، لا شئ لى ولم يعد هناك ما يبهج الروح : إنهار عالم الأحلام ونبيلة سافرت . وقدماى لما سرت قادتنى إلى الكرسى الخشبى الصغير فى دكان صاحبى الذى يبيع المسامير (ربما كان من نوع الايديولوجست الذين لا أحبهم لكن فيه شيئا مختلفا» ، شربنا شاياً ودخنا ، تكلمت كثيراً عن نرجس ونبيلة والحزن والفلوس

والآلهة ، تكلم هو قليلا جدا ، قال : «كن عمليا» ، فتركته لانى لا أستطيع أن أكون عمليا ولا ايديويلوجست شارع المستشفى يضرب فى بطن المدينة طويلا وحزينا وبلا نهاية واضحة ، وكان البقال على ناصية شارع البحرى يسند رأسه على كفيه منصتاً بإهتمام الصوت الراديو المرتفع جدا ، باغته : «علبة سجائر لو سمحت ، ما أخبار البوسنة؟»

- أولا الكلب يذبحون الـ . . .

- أقول ، هل هناك أخبار عن «نبيلة» فى نشرة الليلة ؟

- من نبيلة ؟

- نبيلة بنت السمرى ، السن سبعة وعشرون عاماً ، عيون واسعة عميقة الحزن ، البشرة سمراء ، علامتها المميزة أنها أكثر من فهمنى محل الإقامة الدائم بيت فقير فى عزبة البهتينى ، محل الإقامة الحالى بيت غير فقير فى الخليج ، آ ، ربما سمعت أخبارها من اذاعات الخليج ، هات لنا محطة خليجية لنسمع أخبارها .

تمعن بعينيه الكابيتين فى وجهى .

- هل أنت سكران يا أستاذ ؟

- مالك أنت كنت سكرانا أو مسطولاً ، هات السجائر ، أنت حمار ، تعرف أخبار البوسنة ولا تعرف حتى من تكون نبيلة .

كل ما أطلبه الآن مكان مريح للحزن ، هل أذهب لصاحبي في الغرفة العلوية أشرب شايه الثقيل المحلى بمعلقة لى وملعقة له من مرارة هذا العالم ، ربما يسمع الآن نجاة «وشباك الأمل وفتحه» ويسخر فى داخله ممرورا ، وسوف أعطيه راضياً تماماً - سيجارة كل عشر دقائق كما يحب دائماً من علبتى البكر على أن يقول لى «هل للنرجس أن يزهو وهو وحده بين الخزامى والبانسية ، سرت أحملق فى وجوه القلائل العائدين الآن إلى بيوتهم عُجالى : ناس يحملون على أكتافهم أحزاناً وآله وأفراحا وأشواقاً لا معنى لها ، وأنا ، وأنا وحدى أعرف أن للنرجس حقا فى أن يزهوا وهو وحده بين الورد البلدى والخزامى والبانسيه ، وأنه لاداعى أبدا أن أفقد أكثر من نصف سجائرى .

١٩٩٢



تحسس بعينيه - من خلال زجاج نظارته السميك - أحجار البازلت الأسود بين القضبان الحديدية وهما يعبران المزلقان ، لاحظ العامل الغافى بسترته الخضراء التى تآكل الشعار المكتوب فوق قماش جيبها العلوى ، أحس بالتعب ، قال لنفسه «أحس بالتعب» ، تعود أن يشكو - إن شكى . بصوت لا يسمع ، وهى كانت - من قبل تسمع صمت نفسه ، كان الجانب الآخر من المزلقان مظلماً ، ثمة شجرة صغيرة شبه جرداء تحتها تكومت بعض الصناديق الخشبية ، قال لها «تعالى» لم يكن المكان مطروقاً لأن الشارع الذى وقفا فى بدايته ينتهى بحى «البرابرة» الذى ينام سكانه منذ مغيب الشمس ، جلس على أحد الصناديق - التى يبدو أن العامل قد أعدها لاغفاءات الظهيرة - بينما ظلت هى واقفة .

- الآن أسألك سؤالاً محدداً وأطلب إجابة محددة هل ستتخلين عنى ؟ كان خليط من الإجهاد والحزن والغضب يشوبان صوته الحاد .

- أنت تعرف أن أكثر ما يغظنى ألا يفهمنى الآخرون .

- وهل أصبحت مجرد «آخرين» ؟

- يوه ، أنت الليلة لا تطاق .

يبدو أن صداعــا حادا سيجــتاح نافوخه بعــد قليل ، وعليه أن يحدد كل شئ قبل أن يســتحيل عليه مجرد التــفكير ، انتقل إلى صندوق آخر ليقــترب منها أكثر ، فكر : «إنهــا تلون أظافرها بدمى ، أعجبه التعبير فابتسم ، إنتبه على صوتها الساخط .

- لماذا تبتسم ؟

- اسمعى . فلنتزوج غدًا ، لا ، بل الآن ، هه ؟ هل أنت . . .

جاءت ضحكتها لا معنى .

- بالطبع لن يكون هناك «نجف» فى صالات فسيحة ولا مقاعد كثيرة مذهبة ، هذا ما تحلمين به الآن . . . هه ؟

- لا ، لا أريد هذا كله ، لكنى أيضــاً لا يمكن أن أعــيش فى شقتك الكئيبة فى تلك الحارة القميئة لا أستطيع أن أخدع نفسى ، أنت تعرف ، كل ما أريده هو . . .

فى هذه اللحظة إنطلقت فى الطرف الآخر من المزلقان صرخة ، فوجــئت هى فانتــفضت ، من مكانها لمحــا هرولة الناس من كل مكان إلى عــشة من «البوص» خلــف كشك عامل المزلــقان الذى أفــاق من غــفوتــه الآن منزعجــاً ، وقف هو من جــلستــه فــوق الصندوق وحملق فى اتجــاه العشة ، علــى نور «الكلوب» الباهت ظهر صــبى يلبس جلباباً يهيل على رأسه الــتراب بعصبيــة ويعوى بصوت ســمعاه واضحــاً «أخى» وإمرأة تتشبث بجلبــابه بيد وهى تصرخ لاطمة خذها باليد الأخرى .

- هيا بنا ، لقد تأخرت .

- دقيقة واحدة لأعرف ماذا حدث .

- أنا تأخرت ويجب . . .

لكنه قد تحرك قبل أن تبدأ جملتها راكضا إلى الطرف الآخر من المزلقان ، رآته يندس وسط المتجمهرين أمام عشه البوص ، ثم يميل على أحدهم ويبدو إنه كان بسأله عما حدث ، شاهدت وهى تهز رأسها فى عصبية - الرجل وهو يشرح له مدللا بإشارات وإيماءات إلى الصبى والمرأة النادبين ، ثم وهو ينظر إليهما وكأنه يتأكد من كلام الرجل ، تنفست بعمق حين رأته يعبر المزلقان إليها .

- ماذا حدث ؟

لم يرد عليها ، حملقت فى وجهه ، كان شاردا وكان الاجهاد كذرات غبار عالقة بوجهه .

- ماذا حدث ؟

- خلف . . . مات

- من خلف ؟

- صاحب عشة البوص ، يعمل بالنهار على عربته وفى الليل يصنع الشاى لسائقى الموقف القريب .

كان صوت منهكاً وحزيناً .

- هل كنت تعرفه ؟

- لا ، أبداً .

- طيب ، هيا بنا ، يجب أن توصلني ، لقد تأخرت و . . .

- مات خلف ، منذ ثلاثة أيام سرقوا عربتـه ومعها الحمار في الليل ، وفي الصـباح جـاءت «البلدية» فـأزالت كشك الشـاي ، تصـوري ؟ حدث هذا في يوم واحـد ، لم يحـتمل ، يبـدو أن الرغبـة في الحياة قـد فارقتـه ، مات وترك في رقبـة أخي الصبي الصغير ثلاثة من الأولاد وزوجة .

- إسمع أنا أقدر حزنك ، لكني تأخرت ويجب . . .

كان في هـذه اللحظة في منتصف الطريق متجـهاً إلى عـشة البوص ، نادته ، كررت النداء ، لـكنه مضى وهو يردد شاردا : خلف . . . مات .

١٩٨٣

ينهما صمت ينتظر ، كانت فى ثوبها المنزلى المعتاد ، ثوبها الفستقى بورود خضراء صغيرة وياقه مطرزة ، لمّا رفع رأسه ناحيتها التفتت إليه بجزء من رأسها وحملقت فى شفتيه كأنما تنتظر أن يبدأ الحديث أطرق برأسه ثانية ، لاحظ قدميها الدقيقتين فى خفيها الأزرقين المتقاطعى السيور بينما يسمع صوتها الوانى كاسراً زجاج الصمت الهش سائلة عن حاله .

- الحمد لله ، وصفوا لى أدوية كثيرة ، يقولون إما الغسيل أو زراعة الكلى أو انتظار نهايتى ، ولعن الله المرض ، منذ شهر واحد، لم ترينى ، كنت شاباً يفلق بقبضته الحجر ورفع رأسه قليلاً ، قليلاً إلى الدرجة التى لا تصطدم نظرته بوجهها ، هو دائما حريص على هذا ، إذا ما التقيا وجها لوجه يركز نظرته فى عينيها وكأنه لا يرى جانب وجهها المشوه بدءاً من جانب الأذن حتى أسفل الذقن ، حملق فى الورود الخضراء الصغيرة ، لاحظ : لم تكن وروداً بل فراشات خضراء صغيرة .

- نعم لعن الله المرض والحرائق ، وأنا أيضاً منذ شهر واحد كنت أجمل بنت فى شارعنا ، لقد رأيت الصور بنفسك كنت جميلة .. هه ؟ صحيح ؟

كانا جالسين فى الصـالة التى ينتهى إليها ممر العنابر مـتواجهين على الكراسى الخشـبية المكسـوة بقماش الـقطيفة التى بهـا لونها وخسفت وسائدها .

- آ ، نعم ، طبعا جميلة جداً ، هل تعرفين كم تكلف عملية الغسيل شهرياً ؟ ضعف مرتبى تقـريبا ، أما شراء الكلى لزراعتها ، هأ ، طبعاً حلم ، بل أبعد من الحلم بكثير .

لم يكن صوتـها إلا ما يشـبه الهمس ، ولا يـخدش السكون الجاثم فى مثل هذا الوقت من الليل إلا سعال متقطع أوآهة لمريض تأتى من العنابر القريبـة من الصالة وخشخشه حـذاء الممرضة التى تمر بجوارهما بين الحين والآخر وعلى شفتيها ابتسامة خبيثة .

- يقولون أن عمليات التجميل وخصوصاً فى الخارج تصنع من البومة ملكة جـمال بشرط أن تكون هذه البومة غنيـة لتدفع تكلفة هذه العمليات الباهظة ، مكتوب علىّ ألا أحلم بما تحلم به البنات جميعهن ، أظل عمرى عانسا ، وحدى ، أنا ووجهى المشوه .

رأى كفها تمسح صفحة وجـهها فقال «إنها تبكى» وقال «يجب أن أواسيها ، هأ ، ومن يواسينى أنا ؟» .

- يا بنت الحلال ، على الأقل سـيكون لك عمر لتـعيشـيه ، وحدك غير وحدك ، المهم أن تعيشيه ، الدور والباقى على ، أيام أو شهور ثم . .

ضوء النيون الباهت يرزخ فوق عيونهما كقمر حزين حملق فى الفراشات الخضراء وفكر «يجب أن يتكلم» ها هلى تمنحه الفرصة ، كانت الممرضة قد وقفت غير بعـيدة وقد شرّعت أذنيها ولكنه عزم على أن يتكلم ، عدل ياقة سترته الرياضية .

- لو أجد شـخصاً يبيـعنى كليه بالتقـسيط على ثلاثين سنة ، هىء هىء ، تصورى إننى قـرأت نتائج تحاليـلك الموجودة هنا فى المستـشفى وقـارنتهـا بتحـاليلى ، تطابق تام فى نوعـية الـ . . . تصورى تطابق تام فكرت أنه يمكن . . . يعنى . . .

حملقت فى وجهه وقد اتسعت عيناها ، هلى فهمت ؟ لا ؟ فليقترب إذن أكثر .

- بصراحة ، فكرت إننا يمكـن أنا وأنت ، يعنى ، بصراحة ، أنت لا تبقين بلا زواج وأنا . . . يعنى ، أنا من الممكن أن أعيش ، ما رأيك ، هه ، ما رأيك ؟

حملقت فى وجهه طويلا ، وفجأة ومض فى عينيها بريق حاد وعلى شفتيها المشوهتين ما يشبه البسمة .

١٩٩٣

عن الغيمة التي مرت ولم تمطر

المرأة التي وقفت أمامه تشرح لإبنتهـا الصغيرة عيوب كل ثوب تنتـقيـه البنت - خـبطته بيـدها في صـدره وهي تشيـر إلى أقل الفساتين المعروضـة في الواجهه الزجاجية سـعراً ، ويبدو أنها لم تنتبة أو إنها قّدرت أن تصادم الأجـسام أو أجزائها في هذا الزحام أمر طبيـعي - فلم تعتذر ، وكـان هو قد قرر أن يشتـرى قميص الولد والجوارب بمجـرد أن يصادف ما يتناسب سعره مـع ما تبقى من جنيهات قليلة في جيبـه ، والمرأة حين لمس كوعها كرشه وهي تجـذب البنت في انفـعـال لما فشـلت في اقناعـها بشـراء الثـوب الرخيص - التـفتت إليه واعـتذرت هذه المرة - بإيمائه من رأسـها وقال هو «لا عليك» ، وكانت عيونهم قد اشتبكت لحظة واحدة ، عاودت النظر إلى الفاترينة ثم التفتت ناحيته فجأة وتعانقت العيون . . .

ساعة الجامعة تعزف لحنهـا «تن . تن» تحتها كان العشب المبلل والشجر الأخـضر وزهور صفراء كثيـرة هو وهي ورزاز خفيف ، كانا يرسمـان على العشب أحلاماً يلمهـا الجنايني في الصباح مع أوراق الشجر المتساقطة على الأرض .

تمعنت في وجهـه برهة ، وعرفهـا هو فارتعش في داخله شئ كشرارة صغيرة تبزغ من تحت الـرماد : «هدى ؟ معقول؟» ابتسمت :

كيف حالك ؟ ياه ، كم سنة مـرت ؟» ، خرجا من وسط الزحام إلى أطراف الرصيف ، وتعانقت العيون :

ساعة الجامعة تدق «تن . . تن» ، قالت فجأة .

- ما رأيك ، نأكل كشرى ؟

- أنا أبيض ، لا ، فى الحقيقة معى شلن .

- أدّخره ، معى فلوس ، هيا بنا .

ركـبا سـيارة أجـرة إلى وسط المدينة ، أكـلا الكشرى وشـربا العصير ، أنفقا ثروتهما كاملة ، مشيا - فوقهما غيم وتحتهما غيم - حتى ميدان الجـيزة حيث تسكن ، وواصل هو المشى وحدة إلى مدينة الطلبة .

صارت بديـنه بعض الشئ ، لا ، بل بدينة جدا ، بقى مـنها أحلى ما فـيها الوجه الخمـرى الصافى المستـدير والعيون العمـيقة الحزن والابتسامة الندية .

- تزوجت طبعاً ؟

- لعن الله «تقلية الملوخية» هـى السبب كنت أمشى فى الشارع أشم رائحتها ، أدخل أى بيت أشم رائحـتها ، صمدت زمنا وأنا أعيش على حـاسة الشم حتى استـسلمت ، لم تكن هناك طريقة أخرى لكى أذوق «الملوخية بالتـقلية» سوى أن أتزوج ، تخيّلى ؟ ، الآن لا أكره من أصناف الطعام شيئاً قدر ما أكره الملوخية .

ضحكت كثيراً بينما يداعب البنت الصغيرة ، أحس فى كيانه بانتعاشة حلوة حلاوة قطعة نعناع صغيرة فوق لسانه . فى نفس الشارع كانا يتواثبان يدا فى يد وهما يزقزقان برقيق الكلمات ، ويتندران على السيدات السمينات والرجال ذوى الركوش وهم يرقبون الواجهات الزجاجية وأياديهم تعبث بجيوبهم .

فكر : يمكنه أن يدعوها وابنتها إلى أكل الكشرى وشرب العصير بينما يزقزقان كثيرا عن ساعة الجامعة والعشب المبلل والزهور الصفراء والغيمة التى مرت ولم تمطر . تحسس جيوبه ، ما زال هناك قميص الولد والجوارب والعيد بعد أربعة أيام وقد آن له أن يعود إلى عمله ليوقع على كشف الإنصراف .

- طيب كل سنة وأنتى طيبة ، سعيد لرؤيتك ، مع السلامة .

ربّت على رأسة الصغيرة ، ومضى يدب فى الشارع المزدحم يتفحص الواجهات الزجاجية فى عجل ، فوقه خلت السماء من أى غيم .

١٩٩٢



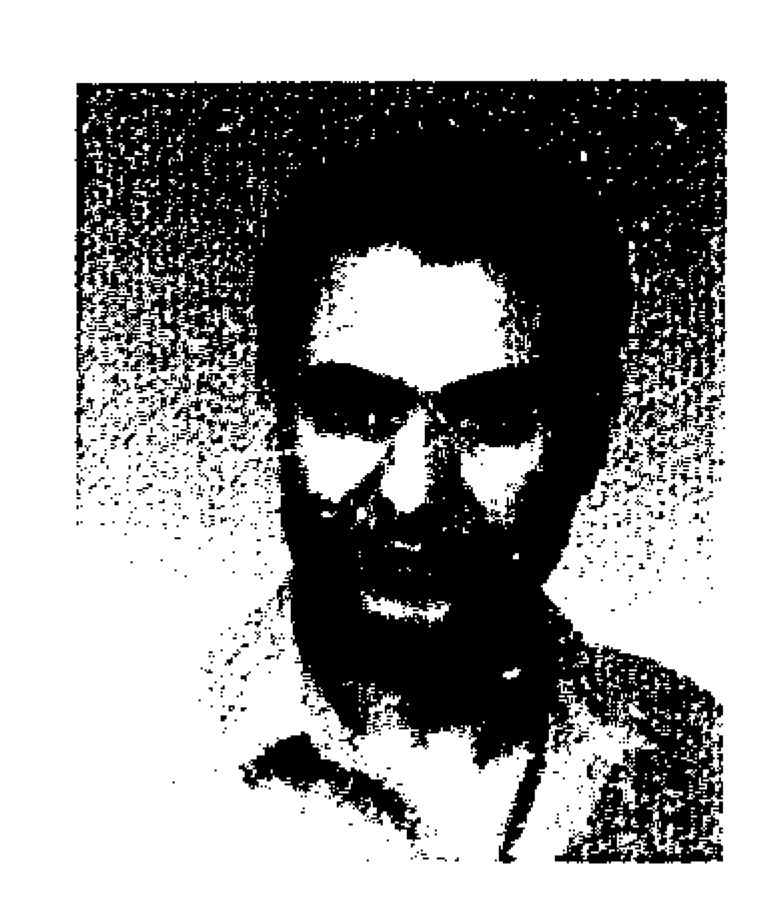
المحتويات

الجزء الثانى - بيوت وشوارع :

الجزء الثالث - أحلام وسكاكين :

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٤٥ / ٢٠٠٢



هذه القصص تدخل إلى قارئها من باب الاختزال ودون ضجيج يشغله صدقُ التجربة عن التجربة ذاتها ، فيختزن خيرات العمر ليختزل فى أسطر قليلة أو أسطر شحيحة ، فهو يختزل رحلة العمر «من أول ضلمة حارة كفر هلال ، ولغاية قعدات الجريون الماسخة» ، وما بينهما كانت رحلة السفر فى الحياة والقصيدة .

ولأن المسافات طويلةٌ بين البدايات وآخر محطات السفر التى وصل إليها قطار التجربة ، فنحن لسنا أمام قصيدة اقتناص اللحظة واستلاب المعانى العابرة ، لكننا أمام حالة سرد روائى طويل اكتفى صاحبها بسردية شفرية تلغرافية يعتمد فيها على فطنة القارئ ، المشيِّد للنص ، فى ملء فراغات النصّ ، لأن الاستجابةَ عند المتلقى سوف تعنى نوعًا من المؤازرة للفعل الحياتى المضمر وراء النص .

